منهج المعرفة في القرآن

رمضان لاوند

الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاوَنْدْ

منهج المعرفة في القرآن

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضـان عبدالرحمن لاوند (سـيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

منهج المعرفة في القرآن

المقدمة

يوم كان اليوناني القديم يستخدم كلمة لوغوس "عقل" كان يقصد بها تلك الملكة التي تستند إلى مقاييس نظرية معيّنة يتميّز بها الحقّ من الباطل، والخير من الشر. وقد عني الفلاسفة اليونانيون بملكة التعقّل هذه عناية خاصة حتى جاء اليوم الذي جمع فيه المعلم الأول أرسطو جملة القواعد التي يستعين بها العقل. وأطلق على مجموعة هذه القواعد اسم "الأورغانون".

وعندما ظهر العصر الإسلامي وترجمت كتب فلسفية وطبية وعلمية يونانية، أو متأثّرة بالفكر اليوناني، ومنهجية في التعامل مع أنواع المعارف، ثبّتت أجيال من الفلاسفة الإسلاميين منطق أرسطو واعتبرت "الأورغانون" أداة وحيدة للمعرفة مبرأة من الأخطاء.

هكذا يتبيّن لنا أنّ سبيل المعرفة عند اليونانيين وأتباعهم من فلاسفة الرومان والمتفلسفين من مفكّري الشرق الأدنى، هو هذا المنطق الذي يستند إليه ما يسمّى العقل. وبتعبير آخر هو هذا المنطق الذي حصر السبيل إلى المعرفة في تلك العلاقات النظرية الشكلية.

لكنّ منطق أرسطو لم يستطع الحيلولة دون وقوع التناقضات حتى عند واضعه الذي هو أرسطو نفسه.

وليس أدلّ على ذلك من أنّ النظرية السببيّة عنده لم تلبث حتى اصطدمت بفكرة التسلسل اللامتناهي ممّا دفع أرسطو إلى كسر هذه النظرية، وافترض أنّه لا بد من وجود علة أولى أزلية أبدية لا تسبقها أيّ علة في الزمان أو المكان.

والجدير بالذكر أنّ الفلاسفة الإسلاميين واجهوا المشكلة نفسها في فلسفاتهم الإلهية حين اضطروا إلى الاعتراف بوجود علّة أولى ليست معلولة لعلّة سابقة عليها.

كما أصبح المنطق بقواعده ومقاييسه في خدمة كثير من الاتجاهات رغم عجزه عن حلّ مشكلة التسلسل اللامتناهي.

أمّا المعتزلة من علماء الكلام الذين أعجبوا بمنطق أرسطو وتحمّسوا له فقد لجأوا إليه في تسجيل آرائهم ونظرياتهم في مفهومات التوحيد والعدل الإلهي وأحكامهم الخاصة بطبيعة العقاب والثواب والأسباب الموجبة لهما فإنهم اضطروا بدورهم إلى وضع تأويلات بعيدة لنصوص قرآنية كثيرة رغبة منهم في تطويع هذه النصوص لمقاييس المنطق وقواعده. وهذا التطويع هو أحد الخيارين اللذين فرضا عليهم أن يكسروا قواعد المنطق الشكلي لأرسطو أو يطوّعوا النصوص القرآنية بتأويلات بعيدة تتعارض بعض الأوقات مع نصوص قرآنية صريحة واضحة جداً.

في ضوء هذا المنطق يذكر المعتزلة أنّ واجب الذات الإلهية أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن. ويذكرون أنّ صفات الله الواردة في القرآن هي صفات سلبية لا إيجابية. ويؤكّدون أنّ مرتكب الكبيرة خالد في النار، مما يعني رفضهم لحق الله عز وجل في أن يغفر لمن يشاء من خلقه.

وخلاصة القول في منطق الفلاسفة الإسلاميين والمعتزلة من علماء الكلام أنّه أصبح المهيمن على الذات الإلهية من ناحية، كما هو المهيمن على الآيات المحكمة والمتشابهة.

وهذا يعني أنّ العقل باعتباره ملكة ينتظم نشاطها بالقواعد والمقاييس المقرّرة في المنطق المتعارف عليه هو وحده الذي يجب أن يستقل في الحصول على المعارف، كما يبدو وكأنّه ذو ماهية خاصة منفصلة عن غيرها من الأنشطة النفسية الأخرى.

القرآن يتجاهل كلمة "عقل".

لو أنّنا تصفّحنا كتاب الله عز وجل الذي جاء مصدراً أساسياً وحيداً للمعرفة ودستوراً تنتظم به العلاقات بين الناس، ثمّ بينهم وبين الذات الإلهية، لأدهشنا أنّ كلمة "عقل" لم ترد فيه أبداً.

ولو أنّنا تأمّلنا جيداً في السبب والأسباب الكامنة وراء تجاهل الوحي السماوي لكلمة "عقل" لبدت لنا الملاحظات التالية: -

1) أنّ القرآن الكريم ألحّ على ضرورة استخدام الفكر الإنساني في التعامل مع أشياء الكون والحياة والإنسان وفي التعامل مع الله عز وجل. ومع ذلك لم يستخدم كلمة "عقل".

"أَفَلا يَنظُرُونَ إلى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ

وَإلى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

وَإلى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ

وَإلى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ" (الغاشية: 17-20).

وفي معرض الحديث عن المهتدين من الناس يقول عز وجل: "أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ" (الزمر:18).

وفي الحثّ على التفكّر أيضاً يقول عزّ من قائل: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الألْبَابِ" (الزمر:21)- "هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ" (غافر:54)- " فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا" (الطلاق:10).. كما استخدم القرآن للتعبير عن المعنى نفسه كلمات أخرى تحمل المعنى نفسه كالنُّهى والحِجى وغيرها.

وكلّ هذا يعني أنّ الوحي السماوي حريص على بعث الحياة في ملكة التفكير عند الإنسان.

2) ولما كان القرآن الكريم قد امتنع عن استخدام كلمة عقل رغم احتفاله بالفكر الإنساني، فقد وجب أن يكون هذا الامتناع بسبب تجاهل هذا الكتاب السماوي لمنهج التفكير الذي يرمز إليه العقل في منطق الفلاسفة وغيرهم ممن سار على منوالهم. ذلك لأنّ هذا المنهج يتجاهل منافذ المعرفة الأخرى ويعزل نفسه عنها. مع العلم أنّ الوحي السماوي قد تحدث عن مصادر أخرى للمعرفة بصيغ مختلفة منها قوله: "وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ" وقوله: "وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" (الذاريات:21) كأنّه يريد أن يقول لنا بأنّ تطهير النفس والتوجه إلى الله بالقربات

يحدثان نوعاً من المعارف يعجز العقل عن استيعابها. كما أنّ التأمل في داخل النفس يكشف عن أبعاد معرفية لا صلة بينها وبين قواعد المنطق التقليدي ومقاييسه.

3) الملاحظ أنّ الوحي السماوي استخدم كلمة قلب أو فؤاد للتعبير عن ملكة التفكير عند الإنسان "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" (ق:37).

"أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا" (الحج:46) - "أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" (محمد:24)- "مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ" (النجم:11)- "وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (النحل:78).

والجدير بالذكر أنّ كلمة "قلب" قد وردت في القرآن 124 مرة.

4) الملاحظ أنّ القرآن لم يستخدم كلمة "قلب" للتعبير عن ملكة التفكير وحسب، بل استخدمها لأغراض أخرى منها:

أ – ذكر أنّ القلب موضع للخوف والطمأنينة: "سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ" (آل عمران:151) "أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (الرعد:28).

ب – ذكر أنّ القلب موضع للحب أو الحقد والغل: " وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا" (الحشر:10).

ج – ذكر أنّ القلب موضع للنفاق والصدق فهو يمرض ويصحّ: "إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ" (الأنفال:49).

د – والقلب هو موضع الإيمان والكفر: "وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ" (الحجرات:7).

هـ – والقلب هو الذي يتّصف بالخير أو الشر: "إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ" (الأنفال:70).

و – والقلب هو مصدر الإرادة والقصد: "وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ" (الأحزاب:5).

وخلاصة القول في مفهوم القلب أنه موضع للتفكير وللهداية والضلالة والخير والشر والمعرفة والجهل والإرادة والعواطف المختلفة. فلا عجب من بعد أن يكون هو المسؤول أمام الله عز وجل وبالتالي أن يكون في لغة القرآن عنواناً على شخصية صاحبه بكل جوانبها وأنشطتها المتعددة.

القلب ووحدة الشخصية

وهنا أيضاً لا يسعنا إلا أن نتساءل: لماذا يصر الوحي السماوي على استخدام كلمة قلب أو فؤاد أو ما في معناها ثم يتجاهل كلمة عقل مع العلم أنّ كلمة "عقل" قد أصبحت عنواناً على التفكير الإنساني على امتداد القرون. وكلمة "عقل" تعني الربط والتقييد، أي أنّ العقل يقصد به الملكة التي تربط المعاني وتقيدها.

والجواب على هذا التساؤل واضح جداً حين نكتشف أنّ المعارف الإنسانية ليست حصيلة العقل النظري في مفهومه التقليدي وحسب، بل تشاركه في الحصول عليها ملكات ومنافذ أخرى. وبسبب ذلك تعدّدت مناهج المعرفة في تاريخ الحضارات البشرية. لكنّ القرآن يتميز في منهجه من كلّ هذه المناهج التي حاول كلّ منها لفترة من التاريخ أن يزعم لنفسه القدرة على استيعاب المعارف دون سواه... وامتياز منهج المعرفة في القرآن أنه يصدر عن المفهومات التالية:

1) وحدة الشخصية الإنسانية بحيث لا يجوز إستخدام أي منهج في المعرفة لا يكون صادراً عن ملكة تجتمع فيها كل مصادر المعرفة. ولما كان العقل مرتبطاً في التراث البشري بطريقة في التفكير تبين لنا عوارها في فقرات سابقة، فقد جاء استخدام كلمة قلب للتعبير عن وحدة الشخصية.

2) والملاحظ أنّ الوحي السماوي لم يجعل من القلب موضعاً لمختلف مناهج التفكير النظري والوضعي والذاتي فقط، بل جعله أيضاً مصدراً للضمير وموضعاً للحس الأخلاقي وغرضاً للمحاولة والمحاسبة. فهو في القرآن كل الإنسان، فكراً وعاطفة وإرادة وضميراً ومسؤولية. لكأنّ الله عز وجل يريد أن يقرر لنا بالمصطلح الذي وضعه، وحدة الخلق.. فلا يبرأ الفكر من الإرادة.. ولا تبرأ الإرادة من العاطفة.. ثم لا تبرأ هذه كلها من ملكة الإحساس بالمسؤولية.

كما يقرر لنا الله عز وجل أنّ الفكر النظري لا يستقيم ما لم يستعن بالملاحظة والاستقراء والتعامل مع الواقع... وأنّ هذه الخصائص مرتبطة في الوقت نفسه بمنهج المعرفة الذاتية التي لا تخضع للتجارب المادية والمنطق النظري، لكنّها في الوقت نفسه تشعر بوحدة تحركها وأنشطتها مع المنطق النظري والتجارب المادية. ولما كانت المعرفة مرتبطة بالسلوك الذي يستنير بالقيم الخلقية وبما يترتب على هذا السلوك من إحساس بالمسؤولية، فإنّ في وسعنا القول بأنّ كلمة قلب كما جاءت في القرآن عنوان على منهج أصيل في المعرفة، يتعارض مع كل المناهج السابقة، ذلك لأنه منهج توازني كل ملكة من ملكاته تتصل بغيرها بقدر معين.

دور الغيب في المعرفة:

لما كان الغرض من المعرفة هو التعرف إلى كيفية بدء الخلق والتأمل في تجارب الأمم السابقة واستيعاب القيم التي تعين الإنسان على الاحتفاظ بتوازنه وإرادته في صنع السلام وإعمار الأرض، فقد حرص الوحي السماوي على تسليط الضوء على جوانب يستحيل على الإنسان أن يعرفها بواسطة ملكاته الخاصة، وعلى تساؤلات فطرية يستحيل عليه أن يجيب عنها، فقد حمل الوحي السماوي إلى الإنسان الإجابات التي تطمئنّ إليها نفسه ويدرك بها سبب خروجه إلى الدنيا وما سيلقاه بعد الموت. وهي مجموعة من المعارف لا تكتمل دائرة الفكر الإنساني إلا بها.

فلولا الغيب ما عرف الإنسان قصة الخلق، ولولا الغيب ما عرف المصير الذي سيصير إليه بعد الموت... ولولا الغيب ما عرف الكثير من وقائع الماضي التي يتعظ بها ويستمد منها أنواعاً من السلوك الضروري لسلامته.

من أجل ذلك جمع المنهج القرآني بين المنافذ المتعدّدة للمعرفة ابتداء من التفكير النظري والبحث الوضعي والتأمل الذاتي ثم الغيب. كما عيّن الحدود الطبيعية والضرورية لكلّ منها بحيث تتكامل وتتوازن فلا يشتط بعضها على بعض ولا يجاوز بعضها بعضاً.

وفي ضوء هذا المفهوم لمنهج المعرفة في القرآن استخدمنا للتعريف به عبارة: "المنهج التركيبي التوازني".

الفصل الأول

لماذا القلب لا العقل في القرآن؟

الأسماء والمسميات:

في الآيات الثلاثين وما بعدها من سورة البقرة ما يطرح أمام الدارس المتدبر لنصوص هذا الكتاب الكريم، قضية هي من أخطر قضايا الفكر الإنساني.

لقد ورد في هذه الآيات قوله عز من قائل:" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) ".

في هذه الآيات إعلان عن تحوّل نوعي في الخلق. والنوعية الجديدة التي رمز إليها النص القرآني برزت في شخص آدم عليه السلام.

القرينة في النص تدل إلى أنّ شخص آدم يميل في الظاهر لشخوص سابقة كانت تعرفها الملائكة وتعلم عنها صفات العدوان والشراسة والميل إلى سفك الدماء والإفساد في الأرض. لكنّ آدم عليه السلام كان كما ورد في تعقيب الله عز وجل على دهشة الملائكة وتساؤلهم عن طبيعة هذا المخلوق الذي حظي بالخلافة في الأرض.

نقول: كان آدم عليه السلام في سابق علم الله مخلوقاً آخر ينتمي إلى نوعية من الخلق مفارقة لنوعية من كان مشابهاً له من قبله ممن استحق تقزز الملائكة منه وتساؤلاتهم المتحيرة حوله.

وقد عبّر الله عز وجل عن هذه النوعية حين قدّم مخلوقه الجديد إليهم بعد أن علّمه الأسماء كلها. ولكي يثبت تفوّق المخلوق الجديد أمام ملائكته المكرمين طلب اليهم أن ينبؤوه بالأسماء التي تعلّمها آدم من ربه. وأمام عجزهم عن الجواب أدركوا أنّ لهذا المخلوق إمتيازاً يفارق به من كان قبله من المخلوقات.

أما الامتياز فظهر في معرفة الأسماء..

والأسماء كلمات ذات محتويات معينة يفترض فيها أن تكون بالغة الدقة واضحة الأداء محددة المعنى. فإذا أطلقنا اسماً على شيء من الأشياء أو على معنى من المعاني أصبح الاسم في منطق الوحي السماوي هو المسمّى أو المعنى الذي يرمز إليه. فالرمز هو المرموز إليه وهكذا يختلط الاسم والمسمى فيصبحان شيئاً واحداً أو واقعة واحدة لا سبيل إلى التفريق بينهما.

وإذا كان استيعاب آدم للأسماء يعني استيعابه للمسمّيات والمعاني التي تمثل غاية المعرفة البشرية، فهكذا يتبين لنا أنّ الدقة في الاسم تساوي الدقة في المعنى، والوضوح في الأداء هو الوضوح في المؤدّى عنه.

والجدير بالذكر أنّ الدقة في التسمية هي الغرض البعيد الذي تهدف المعرفة الإنسانية إليه.... وبذلك يكون نصيب الإنسان من المعرفة بقدر نصيبه من الأسماء التي تستوعبها أو ترمز إليها.

وقد بلغ من أهمية الأسماء التي استقل آدم عليه السلام بتعلّمها عند الله عز وجل إنه تبارك وتعالى قد عيّن مكانتها وحدّد أبعادها في جملة خلقه بأن أمر الملائكة بالسجود لمخلوقه البشري الأول فاستجابوا طائعين لهذا الأمر الإلهي وسجدوا له اعترافاً منهم بالدرجة العالية التي ارتفع اليها بسبب ما تعلّمه من الأسماء.

نحن إذاً أمام قضية بالغة الخطورة تواجه الأجيال البشرية منذ وجدت حتى اليوم، وتتعامل معها في مسيرتها الطويلة التي تهدف إلى الكشف عن أسرار الخلق والمعارف المغيبة.

والأسماء عند الله كثيرة جداً لا يحصيها عدد أبداً. وقد عبر تبارك وتعالى عن كثرتها بقوله عز من قائل: " وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (لقمان:27).

ويقول تبارك وتعالى في مكان آخر: "قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" (الكهف:109)

والمراد بالكلمات كما فسرها المفسرون هي مقدوراته تبارك وتعالى من كل ما أراده ويريده. أي هي المسمّيات.

ولو أننا تلونا ما ورد في الآيات 2-8 من سورة النحل لاجتمع لنا عدد من هذه السميات التي يتعذر إحصاؤها علينا. منها السماوات والأرض والإنسان والأنعام ومنافعها، وما وراء السماء والأشجار التي فيها نسيم (أي نطلق) أنعامنا لترعى فيها، والزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم المسخرات بأمر الله، وكل ما ذرأ الله في الأرض والبحر وحيوانه والحلية التي تستخرج من مياهه، والفلك الجارية فيه والجبال والأنهار والسبل..... إلخ.

هكذا يتبين لنا أنّ الكلمات هي الأشياء والمعاني وكذلك الأسماء هي المسميات.

....

اسم العقل:

والعقل هو اسم من الأسماء التي انصرف البشر كلهم منذ فجر الخليقة حتى اليوم إلى استخدامه على أساس أنه يمثل الملكة العاقلة التي تستوعب المعاني وتقيد المدلولات. وقد بلغ من اهتمام الإنسان المفكر المتأمل بهذا الاسم

أنّ فلسفات كثيرة قد خرجت إلى الناس في ضوئه. والفلسفات على اختلاف مشاربها وتباين أساليبها هي جملة الجهود التي بذلها الإنسان ولا يزال للوصول إلى حقائق الأشياء. فكانت من بينها فلسفات استقلت به واستندت إليه بل اعتبرته العلة الاولى كما جاء في فلسفة أرسطو الذي اعتبر العقل الأول مصدراً لكلّ الموجودات، وكما اعتبرته فلسفات أخرى الميزان الوحيد الذي وضعت له حدود وقيود وجمعت كلها في علم واحد أطلق عليه اسم: علم المنطق.

هكذا أصبح العقل وقد وضعت لنشاطه قيود وضوابط ومناهج مقررة تساعد صاحبه على تمييز الحق من الباطل والخير من الشر، كما تساعده على فض الخصومات ودراسة كل ما يحيط به من أشياء الكون والطبيعة بكل ما تحتويه من كائنات مادية ونباتية وحيوانية.

وقد بلغ من سلطان هذا العقل الذي نظم علم المنطق نشاطه أنه أصبح في نظر كل الأمم أو أكثرها على الأقل المقياس الوحيد الذي تقاس به كل الأشياء والوقائع والمواقف، ثم تعاقبت في ظله أجيال من المفكرين والفلاسفة لا تزال حتى يومنا هذا تعتبره –على درجات متفاوتة من القوة والوضوح – الميزان الثابت وآلة الفكر الموثوقة.

في ضوئه عقدت المناظرات وإليه يحتكم المتحاورون، وبمنطقه الذي وضع أرسطو قواعده الأساسية تفض الخصومات وتوزع الحقوق وتتعين حدود الفضيلة والرذيلة.

يحدث هذا كله رغم التعديلات التي أدخلت على منطق أرسطو، بل بالرغم من المنهج الواقعي الذي نادى له جيل من المفكرين الغربيين في القرن السابع عشر الميلادي على رأسهم فرنسيس بيكون الانكليزي ورينه ديكارت الفرنسي.

العقل والقلب في القرآن الكريم:

لكن الظاهرة التي تلفت نظر الباحث أنّ القرآن لم يساير أجيال البشرية في استخدام العقل ولم يجد في هذه الملكة التي استقلت بآلة التفكير المعروفة ما يمثل ظاهرة الوعي والفهم ومكاسب المعرفة عند الإنسان، فاستخدم

كلمة القلب مكان كلمة العقل. وتكرر استخدامه لها في جملة آياته وسوره مئة وأربع وعشرين مرة. كما استخدم كلمات اللب والحجى والحلم والحجر والنّهى عدداً من المرات مع الإصرار التام على تجاهل كلمة العقل، هذا مع العلم أنّه استخدم الصيغة الفعلية من هذه الكلمة وبعض الاشتقاقات النابعة منها.

فهل يمكن أن يكون تجاهل كلمة العقل في كتاب الله مجرد مصادفة أم أنه مقصود لتقرير حقيقة معرفية مخالفة لما يتعارف عليه الناس في الماضي والحاضر؟

الواقع أنه ليس في القرآن ما يمكن أن نطلق عليه اسم "مصادفة" فهو كتاب فصلت آياته من لدن حكيم خبير. كل كلمة من كلماته بل كل حرف من حروفه قد وضع لغاية مقصودة ولتحقيق الآداء الدقيق الذي يساعد الإنسان على الفهم ويعين له مناهج التفكير والتعليم والدرس، وإذاً فقد وجب أن يكون استخدام كلمة "قلب" عدداً كبيراً من المرات قد قصد به تقرير منهج جديد وتعيين موازين ومصادر للمعرفة تتجاوز الحدود التي يقف عندها ميزان ما يسمى "العقل" عند الكثرة الساحقة من الناس في الماضي والحاضر.

ولكي يتّضح لنا الفرق بين العقل والقلب، ونتعرف إلى السبب أو الأسباب التي تفسر اقتصار القرآن الكريم على استخدام كلمة قلب أو الفؤاد في كل مرة يقصد بها إلى التعبير عن الوعي والفهم وغيرهما من المعاني، أو اقتصاره على استخدام كلمات الحجى والنهى والحجر واللب دون كلمة عقل، يجدر بنا أن نستعرض الأساليب التي اتخذها المفكرون المسلمون لتفسير هذه الظاهرة والربط بينها وبين استخدام كلمة قلب.

رأي الفلاسفة الإسلاميين: –

الفلاسفة الإسلاميون ممن تتلمذوا على علوم الأوائل واستفادوا بآلة الفكر التي هي علم المنطق عند أرسطو كانوا يصرون على اعتبار العقل وسيلة صحيحة للفهم وملكة قادرة على الوصول إلى الحقيقة. وقد قرروا أمام النصوص القرآنية الواضحة المحكمة أنّ للوصول إلى الحقيقة طريقين: طريق العقل وهي طريق المفكرين وذوي العلم، وطريق الشريعة وهي طريق العامة. فاعتبروا النبي رسول الحكمة الإلهية كما اعتبروا الفيلسوف حامل الحكمة

العقلية. وأكدوا أنّ الطريقين توصلان إلى الغاية نفسها. والظاهرتان الفكريتان البارزتان اللتان تؤكدان وحدة الحقيقة وثنائية الطريق هما كتابان يعبران تعبيراً دقيقاً عن هذا الموقف. الأول كتاب وضعه الفيلسوف المغربي الأندلسي ابن طفيل على صورة قصة خيالية بعنوان "حي بن يقظان" قصد بها إلى تأكيد قدرة العقل المستقل على التوصل إلى عقيدة الوحدانية بإمكاناته الخاصة تماماً كما يتوصل الفقيه المتتلمذ على الشريعة الإسلامية إلى هذه العقيدة بالذات. وقد جمع المؤلف بينهما ليبيّن التقاءهما في العقيدة وإن اختلفت طريقاهما إليها. أما الكتاب الثاني فهو بعنوان "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" وضعه فيلسوف مغربي أندلسي آخر هو القاضي ابن رشد الذي اعتبر أحسن وأوسع شارح لفلسفة أرسطو ومعلق عليها.

ولم يقتصر الفلاسفة الإسلاميون على وضع الملكة العقلية بمعناها التقليدي على مستوى الشريعة وحسب بل تصوروا أيضاً عالماً عقلياً يعلو عن عالم المادة تتدرج فيه العقول وتتفاوت قدراتها الاستيعابية والإدراكية، واعتبروا أنّ وجودها ابتداء من العقل الأول ثمرة فيض إلهي. وجعلوا هذه العقول العشرة يفيض العالي على الداني منها وتتقلص قدراتها الفيضية تقلصاً تنازلياً حتى يبلغ الفيض العقل العاشر أو ما يسمّى عقل القمر الذي لا يفيض عنه عقل جديد بل تفيض عنه النفس الكلية والنفس الكلية تفيض عنها النفس البشرية الخاصة.

هذا الخلق العقلي المتدرج هو بالطبع من صنع الخيال الفلسفي لجأ إليه الفلاسفة الإسلاميون ليضعوا تفسيراً منطقياً على طريقتهم للعلاقة القائمة بين المطلق النسبي وبين الأزل والأبد من ناحية، وبين حركة الزمن المحدود من ناحية أخرى... أو بين الوجود الإلهي اللانهائي الواجب الوجود والذي يستمد وجوده من ذاته وبين الوجود الممكن أو بالقوة الذي يستمد وجوده من غيره.

ويشترك في هذا الموقف كلّ الفلاسفة الإسلاميين الذين تخرجوا على كتب الأوائل واعتبروا امتداداً للفكر الفلسفي القديم. وهذا يعني بالطبع أنهم أصرّوا على منح العقل سلطته التقليدية وصلاحياته المعرفية الواسعة واعتبروه طرفاً مقابلاً لمصادر الحقيقة في الشريعة الإسلامية وهي الوحي السماوي.

وفي هذه الظاهرة ما يدل إلى أنّ سلطان العقل بقي قائماً عند المفكرين الفلاسفة الإسلاميين واعتبروه أحد مصدري المعرفة ثمّ ميزوه من الوحي السماوي بأن جعلوه ملكة موقوفة على الخاصة في الوقت الذي جعلوا فيه مادة الوحي السماوي وقفاً على العامة ومصدراً لمعارفها.

رأي العلماء المسلمين من غير الفلاسفة: –

ذكر الدكتور محمد على الجوزو في رسالته التي قدّمها لنيل اجازة الدكتوراه بعنوان "مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة" ما يلي: أكثر العلماء الذين اهتموا بالقلب اهتماماً خاصاً وأولوه عناية بالغة في بحوثهم، هم الذين اتجهوا اتجاهاً صوفياً. ويأتي في مقدّمتهم الغزالي والمحاسبي والترمذي، على تفاوت في طريقة التحليل لحقيقة القلب. وقد أجمع العلماء على أنّ المقصود بالقلب هو العقل..

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى إيراد نصوص جمعها من مراجعها المثبتة في كتابه يجمع أصحابها على القول بأنّ القلب هو العقل:

يروي عن ابن عباس (– 68 هـ) تفسيره لقوله تبارك وتعالى "لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ" أي لمن كان له عقل. ذلك لأنّ العقل قوة من قوى القلب وخادم من خدامه. أما أبو الليث (– 97 هـ) فيردّد المعنى نفسه ويقول: أنّ القلب هو العقل. ثم يبسط أبو الليث رأيه فيقول: "لأنّه يعقل بالقلب فكنّى عنه، ففي الأسيلة المقمّحة: كيف قال: لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ ومعلوم أنّ لكل إنسان قلباً؟ قلت: أنّ المراد هنا بالقلب عقل فكنّى بالقلب عن العقل، لأنّه محله ومنبعه كما قال تعالى: فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ..

وأما مجاهد فقال: لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أي لمن كان له عقل يتدبر به فكنّى بالقلب عن العقل لأنه موضعه..

ثم يروي الدكتور الجوزو رأي كلّ من المحاسبي والترمذي والغزالي والرازي والنيسابوري والزمخشري، نوجز ما رواه عنهم فيما يلي:

1 – عرّف المحاسبي العقل بقوله: وقال قومٌ هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة، يبصر به ويعبر به نور القلب كالنور في العين وهو البصر، فالعقل نور في القلب والبصر نور في العين.

2 – وذكر الترمذي في كتابه "بيان الفرق بين المصدر والقلب والفؤاد واللب" أن اسم القلب اسم جامع يقتضي مقامات الباطن كلها. وفي الباطن مواضع منها ما هي من خارج القلب ومنها ما هي من داخل القلب فأشبه اسم القلب اسم العين، إذ العين اسم يجمع ما بين الشفرتين من البياض والسواد والحدقة والنور الذي في الحدقة، وكلّ واحد من هذه الأشياء له حكم على حدة ومعنى غير معنى صاحبه.

3 – أما أبو حامد الغزالي فهو بعد يعرّف القلب بأنه "لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق"، وبعد أن يقرر بأن هذه اللطيفة هي "حقيقة الإنسان" وأنه "أي القلب" هو المدرك العالم العارف من الإنسان. وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب إلخ... إذا به يرتد إلى منطق الفلاسفة العقليين فيردد قولهم "بأن العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل إذ يحكم الإنسان بأنّ الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة، وهذا حكم منه على كل شخص.. إلخ...

4 – أما الإمام الرازي في تفسيره الكبير فيقول: إنّ محل العلم هو القلب في تفسيره لقوله تبارك وتعالى "خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ". ثم يعلق على ذلك بقوله: واستقينا بيانه في قوله: " نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلبِكَ".

5 – ثم يورد رأي الزمخشري صاحب كتاب "الكشاف" فإذا به يقول تفسيراً لقوله تعالى: "فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا" أي يعقلون من التوحيد ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي. وفي مكان آخر يرد قوله: وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء. وعندما يتحدث الزمخشري عن

أمراض القلب يحصرها في سوء الاعتقاد والغل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف إلخ...

6 – وأخيراً يورد المؤلف رأي نظام الدين النيسابوري فإذا به يحصر مفهوم القلب بمفهومي الهداية والضلالة..

****

أما الدكتور محمد على الجوزو في رسالته "مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة" فيميل في ثنايا رسالته إلى تقرير أنّ للعقل وظيفة محددة، وأنه ملكة قائمة بذاتها مستنداً إلى منطق الاشتقاق اللغوي، فيقول على صورة الاستفهام التقريري ص 55: هل يوجد فعل من غير مصدر؟

ويجيب على السؤال بعد إيراد شواهد كثير من آيات الله قوله ص 63: إنّ اعتبارها آيات أي أدلة وبراهين، يقتضي أن تكون البرهنة "عقلية" لأنها تساق إلى قوم يعقلون. فإذا كان تأمل الطبيعة ودراسة أسرارها ودقائقها ودراسة مظاهر الحياة والموت والإنسان والحيوان والنبات يلقي ضوءاً كاشفاً على الحقيقة فإنّ الفعل "يعقلون" يوحي لنا أنّ واسطة هذا الكشف الفاعل هو العقل لأنّ الذين لا يعقلون هم الذين لا يدركون هذه الحقائق. فالعقل هنا هو أداة الفعل "يعقل" ودوره هو تتبع الظواهر وإدراك العلائق التي تربط بينها وبين استنباط الحقائق.

فإذا تدبرنا النصوص المروية في الكتاب آنف الذكر تبين لنا أن أصحاب هذه النصوص باستثناء النيسابوري والزمخشري مجمعون على وجود ملكة مستقلة يطلقون عليها اسم "العقل"، وإن كانوا في الوقت نفسه يعتبرون القلب مصدراً للوعي والفهم ويضيفون إليه حساً وجدانياً عاطفياً أو روحياً يستقل القلب به دون العقل. أما النيسابوري فهو يحصر بالقلب مفهومي الهداية والضلالة دون تفضيل. بينما يميل الزمخشري إلى تفسير "فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا" بقوله: يعقلون من التوحيد ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي.

فالعقل إذا عند أكثر علماء المسلمين خصوصاً يدخل في عموم القلب. ويضيفون إلى القلب ملكة الوجدان العاطفي والروحي.

والثابت أنّ المعتزلة من علماء الكلام يمنحون ملكة "العقل" شخصية مستقلة توازي الشريعة في قدراتها. بل يطوعون المعاني الشرعية لها ويحاولون باستمرار تأويل النصوص القرآنية تأويلاً قريباً أو بعيداً حفاظاً منهم على استقلال العقل بالمقاييس والضوابط التقليدية لعلم المنطق فهم في منهجهم الفكري أقرب إلى منهج الفلاسفة الإسلاميين.

والجدير بالذكر أنّ هذه الآراء والمواقف الخاصة بالعقل عند الفلاسفة ثم المعتزلة من علماء الكلام ومن بعدهم جملة المفكرين الإسلاميين بمن فيهم رواد التيارات الصوفية، قد كشفت عن ظاهرة الحرج التي عاناها هؤلاء جميعاً حين وجدوا أنفسهم أمام تفرد الوحي السماوي باستخدام كلمة "قلب" للتعبير عن ملكة الفكر وموطن المعرفة من ناحية، ثم أمام الثقافة التقليدية التي جاءتهم بعد علوم الأوائل حيث يستقل العقل، باعتباره ملكة متفردة بالقوة العاقلة التي تولد الأفكار من ناحية وتستوعب المعارف كلها من ناحية أخرى. وقد خرجوا من هذا المأزق الحرج بحلول أكثرها توفيقية وبعضها يحقق نوعاً من التوازي أو قريباً منه كما عند الفلاسفة والعقليين من علماء الكلام.

لكن هذا المخرج التوفيقي أو الذي ينادي بالتوازي بين العقل والقلب لا يعتبر حلاً للمشكلة لأنه يقدم صورة للمعرفة ذات طبيعة مزدوجة، يتضح فيها الازدواج بقوة عند الفلاسفة والعقليين من علماء الكلام ويغمض كثيراً أو قليلاً عند غيرهم ويدخل فيهم رواد التصوف كالمحاسبي والغزالي.

****

القلب وحسب: –

وهنا نعود إلى البداية ونقرّ بأنّ إصرار القرآن الكريم على تجاهل الكلمة "عقل" واستخدام كلمة قلب ليس نتيجة للمصادفة، كما أن كلمة "قلب" في القرآن لا تنبيء أبداً من خلال آياته الواضحة البينة بتضمّنه لملكة

مستقلة يمكن أن تعزل مقوماتها وخصائصها بحيث نطلق عليها اسم "العقل". نجد مصداق ذلك في كل الشواهد التي استعان بها أصحاب النظرية التوفيقية أو القائلون بوجود توازن وازدواج واضحين محددين بين العقل والقلب.

أما الصيغ الفعلية للمصدر "عقل" والتي استخدمها القرآن أكثر من أربعين مرة فهي لا تدل أبداً إلى أن الوحي السماوي يعترف بوجود ملكة "العقل" المستقلة والمنفصلة عن القلب بضوابطها وموازينها وإن كانت "خصوصاً" تدخل في عموم القلب.

إن فعل "يعقلون" مثلاً لا يقصد به غير المعنى اللغوي لظاهرة الاستيعاب والفهم، وتجاهل القرآن الكريم للاسم "عقل" يدل دلالة واضحة جداً إلى تقريره لحقيقة معرفية متمايزة جداً عن النظرية العقلية. فالقلب في القرآن هو هذه اللطيفة النورانية التي ترمز إلى وحدة المعرفة ووحدة مصادرها كما تعلن من خلال القرائن الواردة في كتاب الله سقوط نظرية العقل بمعناها التقليدي وضوابطها المنطقية. فالمعرفة في كتاب الله كما قررنا في الفصول السابقة لهذا الكتاب هي حصيلة جملة من ملكات متحدة كل واحدة منها تقوم بدور معين وتقف عند حد معين، والتنسيق الذي تتم به المقاطعة المتبادلة بين مكاسبها هو الذي يحقق وحدتها ويكشف عن ظاهرة التكامل فيها.

ولو فرضنا أنّ الوحي السماوي قد استخدم اسم "العقل" لكان في هذا الاستخدام إيذان بإعطاء العقل شخصيته المستقلة ومنحه القدرة على استيعاب الحقائق ووضعها على المستوى الذي تتوازى فيه شرعية استنتاجاته واستنباطاته من شرعية المعارف النابعة من غيره من المصادر، ولما كانت الضوابط والقيود المحددة في علم المنطق عاجزة عن الوصول إلى نتائج موجودة عند الفلاسفة العقليين كما هو ثابت في تاريخ الفكر الفلسفي فإنّ من الطبيعي جداً أن تهتز صورة الحقائق التي يحرص القرآن الكريم على تقريرها وعلى وضع المناهج المعرفية التي توصل إليها.

وإذاً فإنّ المعرفة الموجودة يجب أن تصدر عن ملكة موحدة تصب فيها روافد هذه المعرفة بأقدار محددة ويمتزج بعضها ببعض على نحو لا يستقل به رافد عن رافد. وهكذا يتحقق التوازن المطلوب في المنهج القرآني كما سبق أن بسطنا القول فيه في الفصول السابقة من الكتاب.

الفهم الأصيل لكتاب الله: –

أما الآيات البينات التي استشهد بها الدكتور الشيخ محمد علي الجوزو في كتابه "مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة" والتي وردت فيها الصيغ الفعلية للمصدر (عقل) واستنتج منها أن كتاب الله يقرر وجود "عقل" ذي شخصية مستقلة أو يعترف بوجوده، فإن الخطأ في هذا الاستنتاج نابع من اعتقاده بوجود ارتباط موضوعي حتى بين الصيغ الفعلية والمصدر في الواقع الخارجي. والحقيقة أنه لا ضرورة لهذا الارتباط أبداً.

والجدير بالذكر أنّ فهم المنهج المعرفي في القرآن لا يتكامل باقتطاع آيات معينة منه بل باستيعاب آياته كلها التي تعين للمعرفة أربعة مصادر لكلّ مصدر منها حدوده وقدراته ومكاسبه، فإذا اجتمعت هذه المكاسب والقدرات بحدودها التي عينها القرآن الكريم في جملة آياته وتم التنسيق والتداخل بينها في ملكة القلب تحققت المعرفة وظهرت الحقيقة.

1 – هناك مصدر الفكر النظري الذي يستعين به كتاب الله كما في قوله عز وجل: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (البقرة:164)، وكما في قوله: "وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (النحل:12)..

هاتان الآيتان الكريمتان تستخدمان فعل "يعقلون" لا في ضوء أنهما تعلنان عن وجود ملكة مستقلة تدعى "العقل" بل بمعناها اللغوي الذي هو الفهم والاستيعاب وحسب.

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم إذ يطرح كتاب الكون والطبيعة بكل ما فيهما من المخلوقات بين يدي الإنسان إنما يقصد إلى أن تكون القراءة في ضوء ملكة القلب التي يعتبر التفكير النظري رافداً من الروافد التي تصب فيها. والروافد التي تصب في القلب لا يتجسد دورها ولا تحقق الغاية منها إلا بعد أن يستوعبها القلب ويسلط عليها أضواءه، فإذا بها لا تعود مجرد مياه جارية منفصلة بل تصبح بفضل القلب رمزاً لمعنى من المعاني يستقل القلب في صوغه وتعيين أبعاده وتحقيق التنسيق بينه وبين غيره من المعاني، وإذاً فعملية التعقل في كتاب الله هي خصوصية القلب وحسب.

2 – وهناك مصدر آخر من مصادر المعرفة هو التجربة والملاحظة والاستقراء، وهو المصدر الذي يقدم نتائجه المادية الواقعية إلى القلب باعتباره رافداً آخر يصب فيه. وقد وجه القرآن قارئه إلى هذا النوع من المعرفة في قوله عز من قائل: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (العنكبوت:20).

والآية هنا صريحة في الدعوة إلى التعامل مع المخلوقات المادية كلها لاكتشاف أسرارها والتعرف إلى سننها الثابتة بأمر الله عز وجل. ولا يتم ذلك إلا بحمل نتائج التعامل الذي يتم بالتجربة والملاحظة والاستقراء إلى ملكة القلب. والقلب وحده هو القادر على استيعاب هذه النتائج وتفسيرها والربط بينها وبين مصدر الفكر النظري الذي أشرنا إليه قبل قليل. هذه المعرفة هي المعرفة الموضوعية التي يقصد منها حسن الإفادة من نعم الله في الأرض.

3 – ثم يقرر القرآن وجود مصدر ثالث للمعرفة هي التي يعبر عنها بقول الله تبارك وتعالى "وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" وبقوله: "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ". ففي هاتين الآيتين ما يدل إلى أنّ التأمل في أعماق الذات وتطهير النفس من الكدورات بالتقوى هما مصدر من مصادر المعرفة التي لا تستبين حدودها وأبعادها ولا يتحقق الغرض منها إلا حين يستقبلها القلب ويسلط عليها أضواءه.

4 – ثم يأتي المصدر الرابع وهو الذي لا ينطلق من واقع الحياة البشرية ولا يحققه الإنسان بقدراته الخاصة بل يأتي بقدر معين من عالم الغيب لتغطية الثغرات التي لا تستطيع هذه الدورات تغطيتها. إنه مصدر الغيب الذي لا سبيل إلى تكامل المعارف البشرية إلا به. ولا تتحقق وحدتها المتكاملة إلا بعد الكشف عن المعالم والأسرار التي يحتاج القلب إليها لاستكمال مادة المعرفة عنده. وإذاً فإن العلم ببعض المغيبات هو مصدر أساسي من مصادر المعرفة في كتاب الله، حتى أن القرآن يجعل من الإيمان بالغيب أمراً مسبقاً على غيره كما في قوله عز وجل في أول سورة البقرة: " الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) ".

فالإيمان بالغيب مقدم في ترتيب الآية على إقامة الصلاة والتصدّق ببعض الأرزاق.

****

على أنّ القلب الذي هو ملكة التعقل والاستيعاب والفهم هو وحده الذي يستقل بتقرير ما يجب أن يفعله بعد استكمال معرفته، أي هو موضوع للإرادة والملكة القادرة على الاختيار، وهو المحاسب على اختياره ومدى تجاوب الإرادة عنده مع المعارف التي اجتمعت لديه. فهو بالتالي ملكة خلقية إلى جانب كونه ملكة وعي وفهم.

وخلاصة القول أنّ القلب في القرآن لا العقل، هو الذي يفكر ويستنتج وهو الذي يريد ويختار. وبهذا المفهوم تتأكد الوحدة المتكاملة للشخصية الإنسانية. كما يتوحد بهذا المفهوم مصدر المسؤولية أي مصدر الإرادة والاختيار.

****

أما الألفاظ التي يقرر الدكتور الجوزو في ص 101 من كتابه "مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة" بأنها مرادفة للفظ العقل فهي في الحقيقة لا تعني في معناها اللغوي غير القدرة على الاستيعاب والفهم. ولذلك يجدر بنا أن نعتبرها مرادفة للقلب. والألفاظ التي يشير إليها المؤلف هي: اللب والفكر والحلم والنّهى والحجر والحجى.

ولما كان القلب هو في منطق القرآن مستودع معقد للمعرفة كما بيّنا قبل قليل فقد وجب أن تكون هذه الألفاظ مرادفة له. ونحن نقرر هذه الحقيقة تجاوباً منا مع وحدة الشخصية والمسؤولية في الإنسان.

****

والواقع أنّ الدكتور الجوزو قد كفانا مؤونة الرد على الاعتراف بوجود ملكة العقل المستقلة عن القلب في السنة النبوية المطهرة حين روى رأي العلماء في تضعيف الأحاديث التي تعطي للعقل شخصيته الخاصة وتجعله موازياً للدين، من مثل الأحاديث التي وردت في كتاب "فصل العقل" لابن المحبر. فقد جاء في ص 136 قول المؤلف: فقد أجمع عدد من رجال الجرح والتعديل على تكذيب الأحاديث التي وردت فيه مثال ذلك حديث: (الدين هو العقل ومن لا دين له لا عقل له).

وفي ص 140 من الكتاب نفسه يروي المؤلف ما جاء في كتاب الإحياء للإمام أبي حامد الغزالي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم عليّ منك – فيك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب.

ثم يروي المؤلف بعد ذلك رأي المحدث العراقي الذي يقرّر ضعف هذا الحديث. كما يروي رأي الامام ابن تيمية الذي يقرر بأن هذا الحديث كاذب وموضوع عند أهل العلم.

والموقف هو نفسه من الأحاديث التي يرويها ابن أبي الدنيا خاصة بالعقل في كتابه العقل وفضله.

ولا عجب في أن لا يستنكر المشايعون لعلوم الأوائل على اختلاف مذاهبهم مثل هذه الأحاديث، فإنّ فيها ما يؤكد منهجهم في المعرفة ويساند طريقهم في النظر وبين هؤلاء المشايعين فرق الباطنية والمتصوفة والمعتزلة وبصورة خاصة الفلاسفة.

وفي وسعنا أن نضم هذا الرافد الثقافي إلى الروافد السابقة التي تحدثنا عنها. وأن نقرر بأن المفكرين المسلمين الذين حاولوا أن يعتبروا العقل بمعناه التقليدي التاريخي ملكة قائمة بذاتها ومصدراً مستقلاً وحيداً للمعرفة قد تأثروا بنفوذ الثقافات القديمة الوافدة على العالم العربي –الإسلامي فلم يوفقوا على التحرر منها بل لجأ كل فريق إلى أسلوب معين للتخلص من هذه الازدواجية الثقافية التي تكونت بالتقاء الثقافة القرآنية المحضة والثقافة القديمة الوافدة من الماضي أو من خارج العالم العربي الإسلامي.

****

القلب لا العقل في القرآن: –

ولما كانت الشواهد المقتبسة من كتاب الله هي التي يستعان بها في تحقيق القول بأن القرآن قد أغفل العقل باعتباره رمزاً لملكة مستقلة صالحة وحدها للحصول على المعرفة، فقد وجب أن نعود إلى الآيات القرآنية ونستبين دور القلب فيها كما نتبين علاقة ما يسمى "العقلنة".

والملاحظ أنّ الآية التي اعتبرها الدكتور الجوزو "نقطة الالتقاء بين العقل والقلب" هي قوله تبارك وتعالى: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج:46)

فهل صحيح أنّ في هذا الوحي السماوي نقطة التقاء بين العقل والقلب؟ ألا تعني الموافقة على هذا التفسير بأنّ نشاط القلب مباين لنشاط العقل؟ ولماذا لا نقول: إنّ في هذه الآية إعلاناً عن أنّ القلب يعقل بنفسه ويستوعب الحقائق بقدراته الذاتية التي لا تعني القدرات المنسوبة إلى مفهوم العقل التقليدي بل تضم إليها ضوابط وقيوداً ومصادر للمعرفة وموازين أخرى تدخل فيها الإلهامات والأحاسيس الفطرية والقدرة على الاتعاظ؟.

إنّ العقل بمفهومه التقليدي التاريخي عند الفلاسفة اليونان واللاحقين بهم من المتفلسفة الشرقيين قبل الإسلام وبعده هو ملكة باردة تخلو من الانفعال والاتعاظ والإحساس بالمسؤولية ومن البواعث التي تدفع إلى الفعل على أي صورة من الصور.

والدليل على ذلك أنّ العقل الأول عند أرسطو وإن كان في نظره علة الوجود لكنه لا يعي الموجودات التي تصدر عنه ولا يريدها كما لا يرفضها بالطبع. إنّه نوع غير ملموس من المادة غير ذي حدود لا في الزمان ولا في المكان. وهو بعبارة أخرى أشبه ما يكون نسبياً بالميول عند أرسطو نفسه، التي هي العمى المادي. وقد ميز الفيلسوف بينهما بافتراض تهكّمي يقرر أنّ النوع الأول منهما هو مصدر الحركة وإن كان لا يتحرك، ومصدر الإرادات وإن كان لا يريد هذه الإرادات ولا يعيها. وهذا تعريف لا يعني شيئاً غير أنه اللامعنى الذي تصدر عنه كلّ الحركات، واللاإرادة التي تصدر عنها كلّ الإرادات. والسبب في تعرض أرسطو لهذا الحرج هو الشروط المنطقية التي وضعها لمفهوم العقل الأول.

وقد بقيت للعقل هذه الصورة عند الفلاسفة الشرقيين في العصر المسيحي رغم محاولتهم اقتراض ترتيب تنازلي لعدد من العقول بوضع نظرية الفيض. والمقصود بها تصور كيفية خاصة لخروج المعلول من العلة أو المخلوق من الخالق تبدأ بالمطلق لتنتهي إلى المحدود، وباللامادي لتنتهي إلى المادة. وهذا يعنى أنها محاولة لتعليل خروج الفاني والمحدود والمتغير والمادي من ذات الأزلي الأبدي واللامتناهي والثابت واللامادي. فهي إذاً محاولة إقناعنا بصحة مقولة غير معقولة ولا مفهومة.

وقد بقي للعقل بروده ومقدمات منطقه الخاص ونتائجه عند الفلاسفة الإسلاميين مع تغيير فرضته الثقافة القرآنية عليهم هي إحلالهم الذات الإلهية محلّ العقل الأول عند أرسطو، والكائن الأول الذي يفيض عنه المخلوقات عند أصحاب الفلسفة الأفلوطينية. أما عند المعتزلة بخاصة من علماء الكلام الذين أعجبوا بمنطق أرسطو العقلي وسهولة تطبيقاته التي تعفيهم من الوعي بنظرية القلب في كتاب الله، وهو مستودع المصادر المتعددة للمعارف بعد التنسيق بينها وتحقيق وحدتها كما هو مستودع الإرادة والانفعال الوجداني المرتبط بالمستودع

الأول، نقول أما عند المعتزلة فقد احتفظ العقل بموازينه الأرسطية ووضع للآيات القرآنية المخالفة لها تأويلات فيها اصطناع شديد كما هو معروف عند أصحاب هذه الصناعة الفكرية. أي أنّ المعتزلة يقررون القضية المنطقية التي يسلمون بصحتها ثم يعطون النصوص القرآنية الشكل الذي يتطابق معها، من مثل نظرية خلق القرآن ونظرية القبح والحسن العقليين ونظرية العدل الواجب على الله بمقتضى منطقهم العقلي. وعلى هذا يبقى العقل النظري بضوابطه وقيوده المنطقية المعروفة هو المهيمن وهو المقياس الذي يجب أن تنضوي تحته معاني القرآن وأن تتشكل على صورته.

أما العقل عند عامة المفكرين الإسلاميين فقد اعتبر تحت ضغط الحاجة إلى الاحتفاظ بهيمنة النص القرآني ملكة داخلة في جملة ملكات القلب مع احتفاظه بنوع من الاستقلال يزيد وينقص تبعاً لمدى تأثرهم بعلوم الاوائل أو بظاهر النصوص القرآنية.

****

نخرج من كلّ الكلام الذي حققنا به مفهوم العقل التقليدي إلى تقرير حقيقة أساسية أنّ قوله تعالى: "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا" (الحج:46) لا يعني الإشارة إلى نقطة التقاء بين العقل والقلب لأنّ عملية التعقل هي عملية قلبية محضة. يؤكد هذا المعنى قوله تبارك وتعالى في الآية:" فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" (الحج:46). ولما كانت الرؤية والعماية حصيلتين لظاهرة التعقل، ولما كانت هاتان الصفتان موقوفتين على القلب، وإذاً فالقلب هو جوهر التعقل ولا محل فيه لملكة مستقلة تسمّى "العقل".

****

شواهد أخرى من القرآن: –

قلنا: إنّ القلب مستودع لمصادر المعرفة كلها أي هو الملكة الوحيدة التي تتحقق بها وحدة المعرفة، كما قلنا أيضاً: أنّ القلب مستودع للإرادة والوجدان والإحساس بالمسؤولية. وبتعبير آخر نقرر أنّ القلب في القرآن هو الملكة التي ترمز إلى وحدة الشخصية الإنسانية وتكاملها. يصدّق ذلك مجموعة كبيرة من آيات كتاب الله تؤكد كلّ الرؤى دون تمييز بين الرؤية الإيمانية والرؤية الفكرية النظرية والرؤية الموضوعية النابعة من التجربة والرؤية النابعة من الغيب فهي كلّها مادة القلب ومواضع اختصاصه وإن اختلفت مصادر هذه الرؤى وتباينت مناهجها.

فالقلب في القرآن كما تبين لنا في الآية السابقة هو الذي يعقل أي يستوعب ويفهم وهو الذي يعمى ويبصر.

والقلب في القرآن هو المسؤول كما في قوله عز وجل في سورة القيامة: "بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (15)".

والقلب هو الذي يأثم كما في قوله عز وجل: " وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (البقرة:283) "..

والقلب هو الذي يؤمن أو يظهر الإيمان ويخفي الكفر كما هو في قوله عز وجل: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (البقرة:204)".

والقلب يمرض ويصحّ... هو يمرض بالنفاق ويصحّ بالإيمان. فإذا مرض فهو خائف حذر يترقب أن يكشف ستره...وإذا صحّ فهو قوي واثق بيومه مطمئن إلى غده. والقلب يتعرض للختم أو الطبع والإقفال، كما أنه هو الذي يستقبل المعارف أو يهتدي إليها ويتنزّل الوحي عليه. ولما كان القلب بالصفات والخصائص والقدرات التي أوردناها فقد وجب أن يكون واحداً لا أكثر لأنه جوهر الإنسان وحقيقته وموضع مسؤوليته ووعيه.

وفي ضوء المفهوم الواسع والشامل للقلب نستطيع أن نقرر من صحة ما نقرره بأنّ الحب والكراهية، والرحمة والغلظة، والتسامح والحقد، والسكينة والخوف موضعها القلب. وفيما يلي نختار آيات من كتاب الله تسجل كلّ هذه المعاني وتعتبر القلب مكانها الوحيد، كما تجد فيها وفيما ذكرنا قبلها من الصفات والخصائص المادة التي يتخصّص القلب بإنتاجها بالطريقة المعقدة التي تتميز بالتناسق والتوازن والتكامل على نحو نستوعب نتائجه، لكنّ الله وحده هو الذي يعلم صورته الحقيقية وكيفية تحرك القدرات المختلفة فيه. على أنّ ما اخترناه لا يمثل كل ما ورد في كتاب الله من هذه المعاني بل هو مجرد نموذج يمهّد للاطلاع على جملة النصوص القرآنية التي أغفلنا ذكرها بسبب المساحة المحدودة للكتاب.

في الآية 20 من سورة محمد: "وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.. ".

في الآية 24 من سورة محمد أيضاً: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"..

وفي الآية 57 من سورة الكهف: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا".

وفي الآية 127 من سورة التوبة: " وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ".

وفي الآيات 192 – 195 من سورة الشعراء:" نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195) ".

وفي الآية 97 من سورة البقرة: " قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ".

وفي الآية 4 من سورة الأحزاب: "مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ".

وفي الآية 159 من سورة آل عمران: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ".

****

والجدير بالذكر أنّ المفكرين والعلماء الإسلاميين لم يستطيعوا في جملتهم التحرر من وصاية الرؤية المنهجية العقلية القديمة والتي تنادي بوجود منهج عقلي نابع من ملكة يطلقون عليها اسم "العقل" رغم أنّ أعداداً كبيرة من آيات كتاب الله لم تشر إلى هذه الملكة ولم تقرر استقلالها بالطبع بل أضافت قدراتها إلى القلب. واعتبرت هذه القدرات الأخرى التي كشفت عنها رمزاً لوحدة هذا القلب وحصيلة لعملية توازنية تركيبية معقدة جداً ولكنها واضحة المعالم بحيث لا تدع مجالاً للتردد والريبة والشك.

افتقاد الدقة في التسمية:

والتبعية هذه التي تكرّرت مظاهرها وتعاقبت على تفاوت في الوضوح لا تعزى إلا إلى طغيان بعض المفهومات والمصطلحات التي رافقت الثقافات الوافدة من الماضي أو من خارج عالم العربية والإسلام. وهذا الطغيان بدوره أوقع المفكرين الإسلاميين على اختلاف مواقعهم ومذاهبهم في الحرج والغموض، ذلك أنهم بسبب تأثرهم بمناهج الفكر الأجنبي بادروا إلى وضع حلول توفيقية في حالات الاعتدال. وفي حالات التبعية الشديدة كما عند المعتزلة من علماء الكلام ثم الفلاسفة بصورة خاصة وضعوا فرضية غريبة خلاصتها أنّ العقل الذي اعترفوا بسلطانه المطلق وتميزه من القلب هو ملكة موازية في قدراتها لقدرات القلب، مع إضافة تمنح العقل ميزة من القلب هي الزعم بأنّ المعرفة العقلية هي معرفة الخاصة بينما المعرفة القلبية هي معرفة العامة.

****

هكذا فقد الفكر الإسلامي في القرون الخالية وفي هذا الجانب من قيمه الثقافية قدرته على وضع تسميات دقيقة كالتي نجدها في كتاب الله والتي لم تستطع الأجيال المتعاقبة الكشف عن بعض أسرارها المكنونة التي يشير إليها الوحي السماوي بالأصابع العشر حين يصر في مائة وعشرين ونيف من آيات القرآن الكريم على استخدام كلمة قلب والإلحاح على أنّه موضع الفكر والعاطفة والمسؤولية والمعاتبة والحساب والثواب والعقاب، وبالتالي على أنه الجوهر الواحد للشخصية الإنسانية.

كما أنّ الفكر الإسلامي بسبب من افتقاده لدقة التسميات في بعض أنشطته بقي يستعين بالعبارات الغامضة والحلول التوفيقية في موضوع بالغ الأهمية هو موضوع "علم المعرفة".

ولما كان علم المعرفة الذي يحدّد مناهج التفكير والدرس ويعين أساليب التعامل مع الحقائق العقدية، والكون والطبيعة والحياة النباتية والحيوانية والإنسانية، والقيم الخلقية والأدبية فإننا نستطيع أن نستبين السبب الذي حال دون وضوح هذه المناهج في الفكر الإسلامي مع اعترافنا بالخطوات الإيجابية الأولى التي سجلها هذا الفكر حين ميز بين المنهج الموضوعي والمنهج المنطقي الصوري والمنهج الصوفي عبر عدد غير قليل من حاملي رسالته.

الثورة في مفهوم المعرفة: –

فإذا جاز لنا أن نستخدم كلمة ثورة ونحن نناقش علم المعرفة في كتاب الله، قلنا أنّ مفهوم "القلب" يمثل هذه الثورة التمثيل الكامل المتميز بكل معنى الكلمة.

فمفهوم القلب في القرآن ألغى كلّ مناهج الفكر القديم أو الفكر القادم عن خارج العالم العربي الإسلامي. إنه رغم اعترافه بصحة التفكير النظري في خلق السماوات والأرض وفي ظاهرات الموت والحياة ووقائع الطبيعة المختلفة، رفض أن يعترف لهذا التفكير بملكة مستقلة اسمها "العقل"، بل اعتبره واحداً من أنشطة القلب المتعددة. ذلك لأنه لا يقوم بنفسه للحصول على كلّ الحقائق والتوصل إلى كلّ المعارف الممكنة. وقد أثبت المفهوم القرآني للقلب عجز المنهج العقلي الشكلي عن الهيمنة على كلّ المعارف مما أحدث ردات فعل في عصور لاحقة فظهر

المنهج الصوفي ثم المنهج الوضعي. وهما بدورهما كانا يمثلان رؤية جانبية للمعرفة وقصوراً عن استيعاب كلّ جوانب المعرفة التي يتم استيعابها بأقدار معينة وضمن توازن محدد بفضل مفهوم القلب. كما يؤكد هذا العجز أنّ المعرفة بمصادرها الأربعة التي سبق أن عددناها في فصول سابقة من هذا الكتاب حصيلة رؤية موحدة نابعة بأقدار حددها وحي السماء من هذه المصادر بالذات.

وخلاصة القول أنّ النتيجة الثورية لعلم المعرفة ومصادرها في المفهوم القرآني قد أعلنت الحقائق الثابتة الآتية: –

1 – توحيد ملكات التفكير والتعامل مع الكون والطبيعة والحياة والنفس في ملكة واحدة هي ملكة القلب.

2 –كلّ معرفة تنبع من منهج واحدي الإتجاه هي معرفة ناقصة عاجزة عن استيعاب مجموعة الحقائق والمعارف الممكنة، وهذا هو الذي يفسر تحول المفكرين الذين لم يستبروا بالمنهج القرآني الشامل المستوعب من المنهج المنطقي الصوري أو الشكلي إلى المنهج الصوفي ثم إلى المنهج الوضعي بشقيه المادي السكوني والجدلي.

3 – توحيد المعرفة والإرادة في ملكة واحدة هي ملكة القلب. بمعنى أنّ القلب لا يقوم بنشاط معرفي وحسب بل يقوم بنشاط إرادي أيضاً. كما أنه في الوقت نفسه ملكة خلقية وموضع للانفعالات والعواطف المختلفة. وقد أكدت الآيات القرآنية التي روينا بعضها قبل قليل ظاهرة التوحيد هذه.

والجدير بالذكر أنّ الربط بين النشاط الفكري والإرادات والعاطفة هو ظاهرة انقلابية في تاريخ الثقافة البشرية. إنها تقتلع من الجذور كل الاتجاهات الثقافية السائدة قبل عصر القرآن أو السائدة خارج العالم العربي الإسلامي، وتضع الإنسان في طريق جديدة تتغير فيها كلّ وسائل الاتصال بموضوعات المعرفة ومواطنها خارج النفس البشرية أو داخلها، كما تحدد لكلّ موضوع بعده الواقعي فتوفر على الإنسان بذلك كثيراً من الجهد الضائع حين يتخذ منهجا للمعرفة مغايراً لمنهج المعرفة الشاملة المتوازنة في كتاب الله.

والواقع أنّ الإنسان المفكر الباحث عن المعرفة قد حاول جهده أن يتجنب العمل بمنهج متعدد الجوانب يمتزج فيه الفكر النظري والوضعي والصوفي ويستند إلى المعلومات المغيبة بالطريقة التي شرحناها من قبل، لأنّ هذا

المنهج يتميز بالتوازن ويرفض وضع ثقته المطلقة في جانب واحد من جوانب النشاط المعرفي. وبتعبير آخر نقول لأنّ هذا المنهج نابع من فكرة أنّ الوجود سلسلة معقدة متداخلة الحلقات من التوازنات الدقيقة فهي كما يقول بعضهم أشبه ما تكون بالغابة الكبيرة التي تتحرك أشجارها وتنتقل بصورة مطردة وفي اتجاهات متعددة مع احتفاظها بموقعها من الأرض فهي لا تعرف الثبات في داخلها وإن كانت ذات إطار خارجي ثابت.

وبهذه المناسبة وإثباتاً للتعارض الأساسي بين الفكر اليوناني مثلاً وبين حقيقة الكون والحياة، نذكر أنّ علم الهندسة الذي مهر فيه اليونانيون هو علم كوني ثابت في كلياته وجزئياته لأنه يقوم على أبعاد ثابتة لا تتغير، أي هو مفارق في بنيته للكون والطبيعة لأنهما في حركة وتغير مستمرين. وإذا كان اليونانيون قد اختاروا هذا العلم بالذات واهتموا به فلأنه يعفيهم من رؤية الكون والطبيعة على حقيقتهما. ولا عجب في ذلك فإنّ ما يسمى بالمنهج العقلي الصوري الذي وضع أرسطو له قيود المنطق الشكلي وضوابطه هو ظاهرة أخرى تدل إلى تجنب اليونانيين خطة مواجهة المعرفة الشاملة التي تستند إلى مصادر متعددة ذات حدود متفاوتة وذات قيم خلقية خاصة.

من أجل ذلك، ولكي نضع قطار المعرفة البشرية فوق الخط الحديدي الأصيل يجب أن نعيد النظر في كثير من التسميات التي اصطلحنا عليها وفي مقدمتها مصطلح "العقل" الذي كشفنا عن المأزق الذي واجهه المفكرون بسببه، دخل فيهم المفكرون الإسلاميون الذين بادر الكثير منهم إلى اتخاذ حلول توفيقية للخروج منها دون نجاح.

وهذا يعني أنّ علينا نحن الذين هُدينا إلى كتاب الله أن نتدبّره ونفكر فيه بعد أن نتحرر نهائياً من كل المسلمات الفكرية السابقة. أي أن ننطلق بحركة انقلابية شاملة على الصورة التي جاءت بها الدعوة الإسلامية على لسان محمد صلى الله عليه وسلم. هذه الدعوة التي نادت بإسقاط عالم الجاهلية كله بما فيه من فكر وقيم وعادات وتقاليد وعقائد فأرست مبادىء الرأي، وكخطوة أساسية قاعدة عقيدة الوحدانية، التي تهدف إلى اقتلاع البنية الجاهلية من جذورها، ثم تتابعت التوجيهات والأوامر والنواهي والمحاورات في ضوء هذه القاعدة فاتبعت بعض الماضي لا على أساس أنه جزء منه بل على أساس أنه الحق النابع من هذه القاعدة.

وبشيء من التجاوز نستطيع أن نقول: أنّ خطة رينيه ديكارت الفيلسوف الفرنسي الذي ألغى بشطحة قلم واحد كلّ مناهج الفكر القديمة وطالب بالابتداء من البداية وطرح أول قضية له عبر عنها بقوله "أنا أفكر إذاً أنا موجود". نقول أنّ هذه الخطة صحيحة من حيث الشكل لا من حيث الموضوع لأنها بدأت بداية خاطئة مخالفة للبداية التي سجلتها دعوة الإسلام.

ولنتدبر في هذه المناسبة قوله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" (الأنفال:24).

والإحياء في هذه الآية لا يعني بعث الحركة في الأجساد وحسب بل يتناول كلّ الأنشطة التي تصدر عنها: النشاط الفكري على صوره المختلفة والنشاط العملي النابع من الإرادة ثم العقيدة التي هي بمثابة الجهاز الضابط أو البوصلة التي تعين مسيرة كلّ من العمل الإرادي والنشاط الفكري في صف واحد فلا ينفصل أحدهما عن الآخر تجاوباً مع وحدة الشخصية الإنسانية.

ويترتب على هذه الاستجابة لله ولدعوة الرسول الاستعانة بمنهج معين في التفكير والالتزام لأخلاق معينة. فالاستجابة على هذه الصورة هي إعلام قاطع حاسم لا غموض فيه لوحدة النشاط الإنساني في الفكر والعمل، أو في العقيدة والطاعة. كما أنّ هذه الاستجابة التي تحقق عملية الإحياء رفض لعملية الفصل بين المعرفة والأخلاق العملية لأنّ قيمة كل منهما مرهونة بالأخرى.

وكلّ نهضة يخطط لها المسلم لبناء مجتمع المستقبل لا تنبع من مفهوم هذه الاستجابة هي في حقيقتها حمل كاذب لوليد المستقبل، أو هي حمل غير مستوف لشروط الحياة الصحية المتوازنة.

****

وفي ضوء ما قررناه وسلطنا الضوء عليه من الحقائق يحق لنا أن نعلن بأنّ ما يعانيه العالم العربي الإسلامي في الوقت الحاضر من المتاعب هو بسبب من المناهج الفكرية المنحرفة، أو من الفصل بين الفكر والأخلاق العملية. وبالتالي هو بسبب من سوء فهمنا لكتاب الله ولتحويلنا عملية التلاوة لآياته إلى شيء أشبه ما يكون بزمزمة الكهان أو التراتيل التي ترافق الطقوس الوثنية أو الطقوس التي لا دور لها في صنع المجتمع البشري.

إنّ مآسينا اليوم نابعة من عجزنا عن الارتفاع إلى مستوى الوعي والأخلاق التي تحيل كلامنا إلى بطل وبدع، في ميدانه متحرر من كل وصاية غير وصاية الكتاب والسنة الصحيحة فتنضبط بالمنهج القرآني الذي وضع حجر الأساس لثورة في المعرفة حين وجد في القلب كلاً من الفكر والأخلاق العملية وعيّن حدود كلّ منهما على نحو لا سابقة له وبصورة مفارقة لكلّ ما ظهر بعده من مناهج ناقصة مبتورة كتلك التي جعلت من حضارة الغرب التكنولوجية جسداً عملاقاً فائق القوة المادية يفتقد القلب السوي.

الفصل الثاني

القرآن منهج المعرفة المباشرة

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أدّبني ربي فأحسن تأديبي".

وفي يقيننا أنّه عليه السلام لم يقصد إلى الأدب بمعناه الضيق. أي بالمعنى الخلقي وحسب بل قصد إلى الأدب الذي تأدبت به ملكاته كلها. فقد تأدب به عقله وقلبه ووعيه الخلقي وسلوكه المتوازن الواقعي مع أشياء الدنيا وأشواق الآخرة. أي أنّ الأدب الإلهي الذي صاغ شخصيته صلى الله عليه وسلم هو أدب شامل يستوعب كل اهتماماته فكان بالنسبة إليه: أسلوب عيش، وطريقة تفكير، وخطة عمل، على أساس أنّ الإنسان كلٌّ لا يتجزأ... فهو ليس قيمة عقلية وحسب ولا قيمة روحية فقط... ولا هو مجموعة من الغرائز الجسدية... بل هو جملة من الغرائز والدوافع تبدأ بأشواقه التي أطلق عليها عباس محمود العقاد في كتابه "الله" اسم الغريزة الكونية[1]، وتنتهي بالملكة التي يتعامل بها مع أشياء حياته اليومية مروراً بكلّ الملكات التي تتناول جملة الاهتمامات البشرية.

وإذاً، فإنّ الأدب الذي حظي به النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم هو أدب صاغ كل كيانه المادي والمعنوي، العقلي والروحي، وكل علاقاته الدنيوية والأخروية، وهو الذي عناه المولى عز و جل حين أحاطنا علما بما أنعم به علينا في قوله تبارك وتعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (المائدة:3).

ونحن واثقون حين نطلع على سيرة النبي المصطفى عليه السلام بأنّ تاريخ حياته هو تاريخ المعرفة التي انتظمت بها عقيدته وأفكاره وسياساته الدنيوية. فلنعد إلى هذه السيرة نتعرف إلى أسرارها ونكتشف موحياتها التي نستخرج منها فصلاً من قصة المعرفة عند صاحبها عليه السلام. أوليس أنّ الله عز وجل يقول لنا في محكم تنزيله: "لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (الأحزاب:21).

---

1 . انظر ص 17 من كتاب "الله" لعباس محمود العقاد – منشورات دار الهلال.

فما الذي حملته إلينا أخبار هذه السيرة المحمدية الكريمة؟

أول ما يلفت نظر القارىء لوقائع هذه السيرة الكريمة ما رواه البخاري بسنده الصحيح قال: عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: "أول ما بُدِىء به رسول الله صلى الله عليه و سلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب الله إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه، وهو التعبّد، الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء".

وذكر ابن هشام في سيرته أنّ عبد الله بن الزبير سأل عبيد بن عمر بن قتادة الليثي قال: حدثنا يا عبيد كيف كان بدء ما ابتدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين جاءه جبريل عليه السلام؟ فقال عبيد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء من كلّ سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية" (1)

ثم بدأ نزول الوحي حين بلغ النبي عليه السلام عامه الأربعين. وهذا يعني أنّ ما قُدِّر لمحمد من تلقي الوحي كان في حاجة إلى استعداد نفسي وكفاءة روحية لا يتيسران لصاحبهما إلا بعد فترة من التأمل والرياضة النفسية التي يقصد بها تطهير الذات وتنمية الأشواق الروحية وتوثيق الرابطة بين الإنسان وبين خالقه عز وجل. وهذه ظاهرة متعارف عليها عند العارفين بأسرار النفس البشرية، والمدركين لأهمية العلاقة بين الاستعداد النفسي من ناحية وبين مواجهة المسؤليات الدنيوية وغير الدنيوية من ناحية أخرى.

والجدير بالذكر أنّ التراث المحمدي لم يستقل بهذه الظاهرة فقد وجدنا مثلها عند كثير من الرجال، وفي شعوب وأمم غير الشعب العربي. إنها ظاهرة إنسانية تبرز بها الأشواق الروحية العميقة إلى المعرفة وتنمو بفضلها تلك الملكة العميقة التي تشد الإنسان إلى المجهول فهو يحاول أن يقتحم أبوابه لا عبر الأشياء المادية التي تحيط به من

1 . انظر ص 235 من سيرة ابن هشام – القسم الأول – الطبعة الثانية – نشر مصطفى البابي الحلبي وأولاده – 1375 هـ - 1955م.

كلّ جانب بل عبر قوة مركوزة في أعماق نفسه لا يدري كيف جاءته ومن أين وصلت إليه لكنّه يحس بها قوية واضحة الأبعاد تدفعه دفعاً شديداً للبحث عن الحقيقة.

ولعلّ حرفة الرعي التي تعاقب عليها الآنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أن تكون الوسيلة العملية التي يستطيع الراعي معها أن ينصرف إلى ذات نفسه وأن يقلب طرفه فيما حوله في الوقت الذي يقلب فيه النظر في أعماق بصيرته. حتى إذا بلغ من ذلك ما يعده لاستقبال الوحي ولحمل رسالته إلى الناس جاءه الأمر بالخروج إليهم ودعوتهم إلى عبادة الله عز وجل.

****

والواقع أنّ أجيال المتصوفة الذين ظهروا في العصور الإسلامية اللاحقة وجدوا في هذا السلوك النبوي سنداً لطريقتهم في الحصول على المعرفة. على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكف عن خطته في الانصراف إلى التأمل والدخول إلى أعماق نفسه بعد أن جاءه الوحي وشغلته شؤون الدعوة في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة. فقد أصبح التأمل عنده جزءاً من العبادة اليومية التي أمر بممارستها والقيام بها فرضاً من الفروض الدينية التي يستمر بها تأديبه ويتعمق بفضلها وعيه الديني ويشعر معها بحلاوة القرب من الله عز وجل.

والعبادة التي تعتبر استمراراً لسلوكه قبل النبوة في التوحد والتحنث في غار حراء، كانت في الصلاة والصوم والزكاة والحج. أي أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياته كلّها إن في تعامله مع الله عز وجل أو في تعامله مع الناس أو في تعامله مع أشياء الحياة الدنيوية كلها.

لقد كان الغرض من العبادة أن يمارس الطاعة لله عز وجل لكنه في الوقت نفسه كان يواجه كل قضايا عصره من خلال هذه العبادة أيضاً. فهو يعبد الله حين يقوم في صلاته خاشعاً.. وهو يعبد الله حين يمتنع عن الطعام والشراب في صومه... وهو يعبد الله حين يراقب نفسه أو يسير في الأسواق ويمشي بين الناس يتعامل معهم... ينصح من يحتاج إلى النصح... ويتصدق على من يحتاج إلى الصدقة... ويعلم من يحتاج إلى العلم... يجاهد

دفاعاً عن سلامة الدعوة، ورغبة في نشرها بين الناس... ويسكت حين يكون سكوته خيراً... ويتكلم حين يكون كلامه خيراً... يفعل هذا كله باسم الله واستجابة لأمر الله. فهو في طاعة الله حين يصلي ويصوم ويحج... وهو في طاعة الله حين يتصدق... وهو في طاعة الله حين يخطب بين الناس... وهو في طاعة الله حين يتاجر... وهو في طاعة الله حين يستصلح الأرض ويعمرها... وهو في طاعة الله حين يتزوج وينجب الأولاد... فتحنثه عليه الصلاة والسلام لا يقف عن الرياضة الروحية وفي حدود الصلوات والعبادات المماثلة لها بل يتجاوز هذا كله بحيث يستوعب تحنثه شؤون الدنيا كلها.

****

والجدير بالذكر أنّ أجيال المتصوفة من بعده قد وجدوا في القرآن ما يدفعهم إلى تعميق وعيهم الروحي كما في قوله عز و جل: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" (فصّلت:53). وطبيعي أنّ قوله: "وَفِي أَنفُسِهِمْ" هو الذي شد أنظارهم ولفت اهتمامهم أكثر من قوله "فِي الْآفَاقِ" التي تعني كل ما في الكون والطبيعة ومظاهر الحياة الخارجية من دلالات على عظمة الله عز وجل.

كما أنّ هذه الأجيال قد انصرفت إلى تأمل قوله عز وجل: "وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ" (الذاريات:21) فقد وجدوا في هذه الكلمات السماوية القليلة ما يدفعهم إلى المزيد من التأمل في داخل نفوسهم.

****

والواقع أنّ كتاب الله حافل بالآيات التي تحض على المزيد من التقوى وتدفع إلى التحلي بالمزيد من الصبر. من ذلك قوله الله عز وجل: " وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا".(الكهف:28)

كما أنّ القرآن الكريم ربط التقوى بالعلم... فعلم رسوله والمؤمنين من حوله بأنّ التقوى ليست ممارسة تعبدية وحسب بل هي أسلوب من أساليب المعرفة. فقال عز وجل من قائل: "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (البقرة:282).

ومما يلفت النظر أن قوله تبارك وتعالى "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ" يختم آية تفصل حكم المداينة بين الناس وتنظم علاقتهم بعضهم ببعض في موضوع يتصل بأعظم هموم الناس ومشاغلهم. يقول عز وجل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۖ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (البقرة:282).

فالتقوى شرط للاستقامة في الكتابة والإملاء... والتقوى شرط في اختيار الشهود... والتقوى شرط في التعامل بغير المواثيق المكتوبة... والتقوى شرط في الامتناع عن الإضرار بالكاتب أو الشهيد... والتقوى أخيراً هي مصدر للعلم الذي يستوعب ما ذكر في هذه الآية القرآنية وما لم يذكر فيها.

وبتعبير آخر نستطيع القول بأنّ التقوى، التي هي في قمتها، أن تعبد لله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هي مفتاح كل وجهة للمؤمن في دنياه. إنه يفترض أن ترافقه حين يقوم بشؤون نفسه، وحين يشرف على أمن أسرته، وحين يقوم بحاجات أفرادها، وحين يتعامل مع جيرانه، وحين يندب نفسه للجهاد في سبيل الله، وحين ينصرف إلى التأمل في الخلق باحثاً منقباً ساعياً إلى اكتشاف القوانين والسنن التي خلقت في ضوئها وانتظمت بها

كل المخلوقات، وحين يقرأ فيحسن القراءة، ويكتب فيحسن الكتابة، ويصنع أشياء دنياه فيحسن الصنع، وحين يتاجر، وحين يحرث الأرض ويسقي الزرع، وحين تسند إليه أي مسؤولية من المسؤوليات.

فالتقوى هي ضوء تستضيء به النفس في الحل والترحال، وفي الأمن والخوف، في ظلمات الليالي وأنوار النهارات، في العمل والراحة، في القيام بالواجب والمطالبة بالحقوق. كما أنّ التقوى هي المدد الذي تصدر عن صاحبها بفضله الأحكام الحصيفة، والآراء السديدة، والاختيارات الصالحة، ويحسن به السلوك وتصفو به النفس، ويتزن به التصرف... إنها من وراء السماحة والعدل، والشجاعة، والتواضع، والصبر على المكاره، والسخاء، والحب الذي لا يراد به غير وجه الله، والإرادة، والفكر الصادق، والإحساس السليم. وأخيراً نستطيع القول أنّ التقوى هي مصدر لتلك اللطيفة النورانية التي تشيع في النفس فتحمل معها طمأنينة القلب ونور العقل وطهارة النفس.

ولكي ندرك هذه الأبعاد كلها تعالوا بنا نبحث في كتاب الله عن الملابسات التي تتصل بالتقوى كما سمتها لنا العناية الإلهية وجعلت منها منارة في طريق الباحثين عن الحق، الساعين إلى المعرفة، الراغبين في الالتزام لأوامر الله ونواهيه، الجادين في تربية أنفسهم وتنظيم علاقاتهم بالخلق كله.

1) " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (البقرة:189)

ليس غريباً أن ترتبط الآية بين الإيضاح الخاص بدور الأهلة وبين إتيان البيوت من أبوابها من ناحية وبين التقوى من ناحية أخرى. فأما أنّ الإيضاح الخاص بدور الأهلة هو إعلان عن نعمة إلهية عظمى لا يستوعب أبعادها غير الصالح من عباد الله المؤمنين به فقد شرحته آية أخرى جاء فيها قوله تبارك وتعالى "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (يونس:5)..فالأهلّة آية من آيات الله التي لا سبيل إلى إحصائها والتي سخرتها العناية

الإلهية لتوفير أسباب العيش الإنساني الكريم. وقد أتبعها الوحي السماوي مباشرة بالإشارة إلى آيات أخرى تشبه الأهلة في أداء أدوار أخرى تقوم بها للغاية نفسها فيقول عز وجل: "إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ" (يونس:6)".

هكذا يشد الوحي السماوي نظر الإنسان إلى ما حوله من الظاهرات الخلقية بحيث يفترض أن تكون كل ظاهرة منها ينبوعاً جديداً من الوعي الديني، فيدرك الخير العظيم في النعم التي توفرها العناية الإلهية... وهذا يعني بالطبع نوعا من المفاعلة الجدلية بين الكشف عن النعم العظيمة وبين التقوى التي ترمز إلى القرب من رحاب الخالق عز وجل.

ومما يلفت النظر أنّ آية السماء التي تتمثل في الأهلة والتي كشف الوحي السماوي عن دورها في صنع جانب خطير هام من حياة الإنسان، ترد الإشارة إليها، إلى جانب تصحيح قد لا يكون في ذاته عند القارىء ذا أهمية خاصة فيما لو عقد مقارنة بين ظاهرة الموضوع الذي جاء الوحي بتصحيحه وبين الظاهرة السماوية التي هي الأهلة. لكنّ القليل من إمعان النظر في عملية التصحيح هذه لا يلبث أن يكشف لنا عن سر من الأسرار الخاصة بالعلاقة القائمة بين المعرفة والتقوى.

فالله عز وجل في الآية 189 من سورة البقرة يخبرنا أنه ليس من البر إتيان البيوت من ظهورها لكنّ البر من اتقى. ثم يشرح التقوى هنا ويدل إلى معناها فيقول " وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".

أما قضية الإنكار على الناس أن يأتوا البيوت من ظهورها وحضهم على إتيانها من أبوابها فالغرض منها فض عادة جرت ربما خلقتها خرافة قديمة، بدخول المسافر العائد إلى بيته من الخلف للتقرب إلى الله عز وجل فيما كان الجاهليون يزعمون. وقد أكدت الآية الكريمة تلك العلاقة الوثيقة بين التقوى وبين تصحيح هذه العادة لتقول للناس أنّ التحرر من هيمنة بعض السخافات حتى تلك الخاصة بدخول البيوت من ظهورها هو شيء في صميم التقوى التي لا تستقيم لصاحبها تماماً إلا بالتخلص من الخرافات والأساطير.

****

أوليس في هذا التوجيه الذي يربط بين التقوى من ناحية وبين آيات الله العظيمة في خلقه والتحرر من السخافات والخرافات من ناحية أخرى ما يدل إلى شمول مفهوم التقوى ودورها في شد العقل والقلب والنفس إلى الخلق العظيم وإلى الحرية من كل قيد تصنعه الخرافة والعادات السخيفة.

وتمضي الآيات القرآنية في الربط بين التقوى التي تعبر عن وعي الإنسان الدائم بالحضور الإلهي وجلال الخالق عز وجل وبين كل الأنشطة والالتزامات المرعية في الحياة الدنيوية...

- هناك التقوى التي تعوض عن التقديم أو التأخير في ذكر الله في أيام معدودات، هي أيام الحج...

لأن المهم في هذا الذكر هو تحقيق المزيد من الوعي بالحضور الإلهي وجلاله... وليست المناسك مقصودة لذاتها بل لما ترمز إليه وتعبر عنه.

نجد ذلك في قوله عز وجل "وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" (البقرة:203).

- كما أن الوفاء بالعهد الذي هو خلق أساسي في بناء المجتمع وتدعيم العلاقة الكريمة بين أفراده جزء من التقوى بل هو التقوى نفسها... والمقصود بذلك أن يتعلم المسلم بأن خلق الوفاء لا يتحقق عند صاحبه في المفهوم الديني إلا بالتقوى. نجد مصداق هذا الأمر في قوله عز وجل " بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (آل عمران:76).

والالتزام بحدود الله ولا سيما فيما يتعلق بالعقوبات التي نصت عليها شريعة الله، وهو كما نعلم مادة النظام ومصدر الأمن والطمأنينة، لا يمكن أن تدرك أهميته في حماية المجتمع الإسلامي من نابتات السوء إلا بالتقوى. فلا

عجب أن يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة:179).

هكذا يربط الذكر الحكيم بين التقوى وبين الحرص على حماية المجتمع بإنزال العقوبات بمن يستحقها من المخرفين والمجرمين والمعتدين على سلامة الناس.

****

ثم نمضي مع الآيات الكريمة التي تربط التقوى بكل عادة إسلامية وبكل خلق من أخلاق القرآن وبكل نية من نيات المسلم، وبكل تصرف يصدر عنه وسلوك يتصف به... بكل فكرة تخطر في باله وعاطفة يضطرب بها قلبه وميل تحفل به نفسه... إن التقوى كما يريد الله سبحانه وتعالى أن نفهمها ونعي أبعادها هي تلك التي تحيط بنا من كل جانب وترافقنا في كل حال من أحوالنا فتنتظم بها شؤوننا الدنيوية والآخروية فإذا بها جزء لا يتجزأ من وجودنا المادي والأدبي، ثم هي القوة الخفية والظاهرة التي لا يستغني عنها المؤمن...

****

والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم قد جمع كل المعاني والمواقف والتصرفات التي أشرنا إليها في الفقرات السابقة في آية جامعة مانعة تحقق مفهوم الوحدة في البنية الإنسانية وترسم للإنسان وجهة النجاح كيف يكون وحيث يكون وأين يكون في دنياه.

يقول الله عز وجل: "لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" (البقرة:177).

إنها كما نرى آية جامعة لكل خصائص المسلم الذي يدخل في زمرة المتقين. فهي تقول للناس:

1) لا يقصد بالبر أن تمارس الطقوس باتجاه الشرق أو الغرب بل هو في تشكيل روح الإنسان تشكيلاً يتمثل في القضايا التالية:

أ –الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين. وهذا يعني أن الإيمان هو التصوّر الأساسي الذي يجب أن تنبع منه كل الأنشطة البشرية.

ب – التضحية بالمال على حبه لمن يحتاجون إليه من الناس ابتداء من ذوي القربى وهم ألصق أفراد المجتمع بصاحب المال ثم يأتي اليتامى من بعدهم فالمساكين فابن السبيل فالسائلون فالأرقاء الذين يجب أن ينعتقوا من العبودية. والتضحية هذه يمكن أن تتلخص أبعادها في كلمتين وحسب هما: "التكافل الاجتماعي".

ج – لكن التكافل الاجتماعي والإيمان من قبله في حاجة ماسة إلى زاد مستمر يتزودان منه بمدد لا ينقطع من الوعي بالحضور الإلهي ولا يتحقق ذلك إلا بالصلاة وإيتاء الزكاة... فالصلاة هي القيام على عبادة الله بشكل خاص، أما الزكاة فهي النسبة المفروضة على أموال المسلم والمخصصة لتحقيق المزيد من التكافل الاجتماعي. وهذا يعني أن التضحية بالمال التي وردت في الفقرة السابقة هي عطاء إضافي غير الزكاة تتطهر به النفوس وتمتحن به أخلاق المؤمن.

د – والمجتمع المسلم لا يتكامل بناؤه ولا تنتظم حركة الحياة فيه إلا بخليقة أخرى بالغة الأهمية تدعم الثقة بين أبناء هذا المجتمع، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالصدق في الفكر والصدق في الكلمة والصدق في التعامل. ويعبر عن هذا كله بالوفاء بالعهد حين يعاهد المسلم أخاه المسلم بل وحين يعاهد غير المسلم. إن الوفاء بالعهد الذي هو في صميم التقوى هو ضمانة أخرى أساسية لسلامة البنية المجتمعية.

هـ– ثم تأتي خليقة ثانية هي توكيد لنجاح المسلم في التغلب على ضغوط الفتنة والمحنة. والخليقة هذه في صميم التقوى التي لا تستقيم إلا بها. وقد عبرت عنها الآية بقوله تبارك وتعالى: " وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ

الْبَأْسِ".. البأساء حين يصاب الصابر في ماله وولده... والضراء حين يصاب في ذات نفسه... والبأس حين يواجه محنة القتال في سبيل الله.

****

هذه الصورة الشاملة التي رسمها الوحي السماوي لمفهوم التقوى وتلك العلاقة الوثيقة التي لا تنفصم عراها بين التقوى وبين كل الأنشطة المادية والمعنوية لدى الإنسان المؤمن، هما اللتان دفعتا فريقاً من المؤمنين إلى الوقوف عند التقوى في مفهومها الروحي متأثرين بما توافد إليهم من ثقافات الأمم القديمة. فجعلوا من التقوى منهج معرفة. وبدلا من أن تكون التقوى عندهم حظاً مشتركاً شائعاً في كل الأنشطة، أصبحت عند هؤلاء القوم نشاطاً مخصوصاً بالرياضة الروحية والتأمل الذاتي بعيداً عن الاهتمامات الأخرى التي هي أجزاء ضرورية لبناء المجتمع في الحياة الدنيوية.

لقد ظنوا أنّ العبادة وقف على الصلاة وقيام الله والصوم وما يتصل بهذه العبادات من التأمل الذاتي وحسب فأفقدوا التقوى صلتها بهموم التجارة والصناعة والسياسة والقتال والبحث عن أسرار الكون والطبيعة والكشف عن قوانينها والانضواء في مسيرة المجتمع حيث الفتنة والبلاء وضرورة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

هذا الفريق من المؤمنين هو الذي يطلق عليه اسم المتصوفة.

والواقع أنهم قد وجدوا في الآيات التي أوردنا بعضها قبل قليل ما يدعم وجهتهم ويبرر عزلتهم ويحقق غرضهم. وبذلك أعفوا أنفسهم من الاهتمام بما سوى الذكر والعبادة في الصوامع أو في محاريب المساجد ووضعوا كل هموم الدنيا دبر آذانهم وتحت أقدامهم.

****

ونحن لا نقصد إلى القول بأن كل المتصوفة قد التزموا العزلة التامة... وقد تفاوت ميلهم إلى العزلة.. لكن تاريخ هؤلاء القوم قد كشف عن تزايد هذا الميل جيلا وراء جيل حتى جاء يوم خيل فيه لبعضهم أنه قد أسقط عنه كل واجب غير واجب العبادة في عزلة عن الناس.

****

ولما كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم هي القدوة الصالحة للمؤمن... فإنّ صاحب هذه الحياة الكريمة لم يلتزم العزلة ولم يفارق الناس ولم يعف نفسه من مواجهة المشكلات اليومية.

كان صلى الله عليه وسلم وهو أعرف الناس بالله وأتقاهم لله يصلي ويقوم الليل طاعة لله عز و جل... وكان يبني دولة طاعة لله عز وجل... وكان يقضي بين الناس طاعة لله عز وجل... وكان يشرف على الأسواق طاعة لله عز وجل... وكان يجاهد بقلبه ولسانه ويده حين تقضي الحاجة بذلك طاعة لله عز وجل... يستهدي في ذلك كله هدى الله... وهو في كلّ نشاط من أنشطته يتصف بالتقوى كما لم يتصف بها مؤمن في عهده وفي العهود التالية من بعده.

صحيح أنه كان يجد في الإلهام النابع من العبادة مصدراً للمعرفة. لكنها، أي العبادة بالمعنى الذي التزم به المتصوفة، ليست هي المصدر الوحيد للمعرفة.

فالعمل المنظم هو أيضاً مصدر للمعرفة... واستخدام العقل في البحث عن أسرار الطبيعة والكون هو أيضاً مصدر آخر للمعرفة... والبحث عن قوانين الحياة والمادة مصدر ثالث للمعرفة. وقد لجأ النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى كل هذه المصادر في حدود الخبرات التي توفرت لعصره، فلم يكد يستقر في المدينة المنورة حتى أقدم على تنظيم العلاقة بين سكان هذه المدينة من مسلمين ووثنيين ويهود لأنّ هذا التنظيم عملية تفرضها سياسة المجتمع... ثم لم تمض فترة أخرى حتى نهض إلى القتال دفاعاً عن الدعوة الجديدة فكانت معركة بدر

الكبرى... وراح صلى الله عليه وسلم يدخل في كل شأن من شؤون الناس قاضياً ومعلماً ومربياً وموجهاً للقلوب والعقول في ضوء التقوى التي تستوعب شؤون الدنيا كلها.

****

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرع إلى ربه ويسأله أن يهبه نوراً يستضيء به في كلّ عمل من أعماله فيقول عليه السلام: "اللهم أعطني نوراً، وزدني نوراً، واجعل لي في قلبي نوراً، وفي قبري نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً ". وبينما كان يرى في هذا النور ينبوعاً يستضيء به في كل تصرفاته، بما فيها تلك التي تقوم "على التجربة والخطأ" من مثل الشورى التي يستعين بها في اتخاذ القرارات... والخبرة التي يلجأ إليها عند أصحابها، والتنظيم الذي يتولى به توزيع الحقوق والواجبات، إذا ببعض المتصوفة لا يجدون في هذا النور ولا يفهمون منه، غير أنه مادة لمزيد من العزلة عن هموم المجتمع وبؤسه وبأسه وضرائه.

****

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جانب سعيه إلى المعرفة بطريق العبادة يحرض أصحابه على طلب المعرفة بالعمل المادي واستخدام العقل والاستعانة بالخبرات عند غير الأمة الإسلامية، فيروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "اطلب العلم ولو في الصين" و "اطلب العلم من المهد إلى اللحد" و "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" فهل تتفق هذه الدعوة النبوية الكريمة مع ما يقرره الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه أحياء علوم الدين وهو يتحدث عن الطريق إلى المعرفة؟

يقول الغزالي في نص طويل نقتبس منه بعض فقراته: "وزعموا أنّ الطريق في ذلك، أولاً: بانقطاع علائق الدنيا بالكلية، وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن، وعن العلم والولاية والجاه، بل يعيد قلبه إلى حالة يستوى فيها وجود كل شيء وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية، مع الاقتصار على الفرائض

والرواتب، ويجلس فارغ القلب، مجموع الهم، ولا يغرق فكره بقراءة قرآن، ولا بالتأمل في تفسير، ولا يكتب حديث ولا غيره، بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى.

"فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه: الله، الله، على الدوام، مع حضور القلب، حتى ينتهي إلى حالة يترك فيها تحريك اللسان، ويرى كأنّ الكلمة جارية على لسانه.

" ثم يصبر عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة، ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه، كأنه لازم له، لا يفارقه. وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد، واختيار في استدامة هذه الحالة بدفع الوسواس. وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله تعالى. بل هو بما فعله صار متعرضاً لنفحات رحمة الله.

فلا يبقى إلا الانتظار، لما يفتح الله من الرحمة، كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق.

"وعند ذلك إذا صدقت إرادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته، ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا، تلمع لوامع الحق في قلبه[1]".

ثم يقول بعد ذلك:

"وأما النظار" أي أصحاب النظر العقلي "وذوو الاعتبار: فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه، واخفاءه إلى هذا المقصد، على الندور، فإنه أكثر أحوال الأنبياء والأولياء. ولكن استوعروا هذا الطريق واستبطأوا ثمرته، واستبعدوا استجماع شروطه، وزعموا أن محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر.

****

ولكي نقيم ما جاء في هذا النص الذي يرسم طريق المعرفة الوحيد عند المتصوفة نورد الملاحظات التالية:

1) من شروط السير في هذا الطريق الانقطاع عن علائق الدنيا والانصراف عن الأهل والمال والولد والوطن.

---

1. انظر ص 42 – 44 من كتاب "المنقذ من الضلال" للدكتور عبد الحليم محمود.

2) ومن شروطه الانصراف عن العلم في الكتاب أو غيره.

3) ومن شروطه الامتناع عن تفريق الفكر بقراءة القرآن أو التأمل في تفسير أو الاطلاع على كتاب من كتب الحديث.

4) ومن شروطه التصعيد في مقامات الانجذاب حتى يمحي لفظ الجلالة من اللسان ويبقي معناه في القلب ثم التعرض لنفحات رحمة الله.

وهنا نتساءل: كيف يستقيم للمؤمن العابد أن ينقطع عن علائق الدنيا في الوقت الذي جعل الله فيه هذه الدنيا طريقاً إلى الجنة أو النار... وهل نبلغ من ذلك ما نريد ما لم ننصرف إلى شؤون الدنيا في ضوء ما علمنا إياه الله عز وجل بأوامره ونواهيه وبحلاله وحرامه؟.

ثم نتساءل: كيف يستقيم للمؤمن العابد أن يقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم؟ !.

ونتساءل: كيف يستقيم للمؤمن العابد أن ينصرف عن العلم والولاية والجاه في الوقت الذي يوصينا فيه الرسول صلى الله عليه وسلم بطلب العلم من المهد إلى اللحد ويخبرنا أن طلبه فرض على كل مسلم ومسلمة وأنّ علينا أن نحصله حتى لو دفعتنا الضرورة للسفر إلى أقصى الأرض سعياً إليه. بل كيف يستقيم للمؤمن أن ينصرف عن الولاية وما يتصل بها من الجاه في الوقت الذي انتدب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم خيرة صحابته لتولي الولايات والقضاء بين الناس والقيام على شؤونهم والتحقيق بجاه الولاية الذي هو شرط الضبط والربط في المجتمع.

ونتساءل: كيف يستقيم للمؤمن العابد أن يمتنع عن قراءة القرآن خوفاً من أن يتفرق فكره والقرآن يقول في هذا المعنى: "أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"؟!.

بل كيف يستقيم للمؤمن العابد أن ينصرف عن قراءة كتب التفسير أو كتب الحديث في الوقت الذي قال فيه محمد صلى الله عليه وسلم: تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي. وهل من سبيل إلى فهم كتاب الله دون العودة إلى كتب التفسير والتأمل فيها؟ وهل من سبيل إلى معرفة الحلال والحرام وتنظيم كثير من علائق المجتمع دون العودة إلى السنن المروية في كتب الحديث؟

أما الزعم بأنّ أصحاب العقل النظري لم ينكروا وجود هذا الطريق ولكنهم يستوعرونه، ويستبطئون ثمرته، ويستبعدون استجماع شروطه، ويقولون أنّ محو العلائق إلى ذلك الحد كالمتعذر... فهذا كله أشبه ما يكون بالمجاملة لأهل التصوف أو بإنكار تحققه لتعذر محو العلائق.

وماذا يهمنا أن يعترف أصحاب النظر العقلي بإمكان هذا الطريق أو بعدم إمكانه في الوقت الذي تسلك فيه أسماعنا أحاديث تحضنا على الاهتمام بالعلائق الدنيوية وآيات قرآنية تأمرنا بالسير في الأرض والنظر في كيفية بدء الخلق والجهاد حفاظاً على سلامة هذا الدين؟

****

ويحاول المتصوفة الذين يلتزمون بمنهج المعرفة النابع من التأمل والعزلة وقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن والعلم وقراءة القرآن وكتب التفسير والحديث، أنهم يحاولون أن يثبتوا صحة طريقتهم وسلامة وجهتهم بشواهد من كتاب الله منها قوله عز وجل: "وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا".

فمن قال أن الجهاد في الله وقف على هذه الخطة التي رسمها المتصوفة؟ أوليس أنّ التفكر في خلق السماوات والأرض داخل في الجهاد في الله؟ ثم أليس النفقة في الدين بالاطلاع على التفاسير وكتب الحديث مما أمر به الله عز وجل في قوله: "وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ" (التوبة:122)

أوليس في هذه الآية ما يدعو إلى نفرة طائفة من كل فرقة من المسلمين للتفقه في الدين وتعليم الناس شؤون دينهم في دنياهم ولآخرتهم؟

وأين موضع القتال في سبيل الله والتعرض لهمومه وتضحياته من تعاليم المتصوفة والقرآن يقول: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (البقرة:190).

ولماذا كانت الشرائع السماوية لتنظيم التجارة وتوزيع الحقوق والفصل في خلافات الناس؟ هل هي عبث من العبث؟

ولماذا يقول الله عز وجل: "وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا" (الإسراء:36).

أوليس أنّ الأذن والعينين والفؤاد كلها قد خلقت لتقوم بأدوار معينة مسؤولة في حياة الجماعة البشرية وأنّ الوحي السماوي قد نزل ليعلم الناس كيف يستخدمون كلاً من الأذن والعين والفؤاد حفاظا على المصالح ودفاعاً عن دين الله وتفكراً في خلق السماوات والأرض وسعياً إلى المعرفة؟

****

فإذا مضينا مع المتصوفة ونظرنا في الشواهد الأخرى التي يلجأون إليها تدعيما لطريقتهم في السعي إلى الحقيقة وتبريرا لعزلتهم عن علائق الدنيا ولانصرافهم عن هموم الأهل والمال والوطن والعلم والولاية والجاه لم نجد غير رؤية تضييق عن استيعاب المفهوم الواسع الشامل للمعرفة في كتاب الله.

لقد غاب عنهم أن قوله تعالى: "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ" قد جاء تعقيباً على تعليم الله للمسلمين أصول المداينة والتعامل في أهم شأن من شؤون التجارة وما يجري مجراها... فالعلم هنا هو هذه اللطيفة النورانية التي تلازم كل نشاط يقوم به المسلم أكان نشاطاً مادياً أو نشاطاً معنوياً. والنوعان عبادة حين يكونان على اسم الله وفي سبيل الله.

****

إنّ الحق الذي جاءنا به وحي السماء هو جملة ما جاء في كتاب الله. وكتاب الله يفسر بعضه بعضاً ويكمل بعضه بعضاً. فإذا كان للتقوى وما ترمز إليه وتعنيه من تطهير النفس ومحاسبتها والوعي بحضور الله عز وجل، دور إيجابي في تنوير القلب وحسن استخدام السمع والبصر وتحقيق الازدهار والتفتح في الملكات التي منحتنا إياها العناية الإلهية، فهذا لا يتعارض مع الدعوة إلى استخدام أساليب أخرى في المعرفة. لكن التقوى تبقى مصدراً للمدد الروحي العميق الذي يحتاج إليه الإنسان وهو يضطرب في الدنيا، عاملاً في التجارة أو الزراعة أو الصناعة، أو متفكراً في خلق السماوات والأرض... أو سائراً يستكشف مصادر القوة والثروة اللتين أنعمت بهما علينا العناية الإلهية. إنها، إن جاز التعبير، الوقود الروحي الذي تتحرك به الملكات كلها، وتنمو بسببه القدرات كلها... لكن التقوى لا تلبث أن تفقد دورها الإيجابي حين لا نحسن الاستعانة بها في صنع حياتنا الدنيوية وفي الاستفادة من نعم الله في الأرض.

وهي بتعبير آخر الطاقة التي لا يحسن استخدامها في ترتيب شؤون الخلافة التي أنيطت بابن آدم ما لم نتوسل لهذا الاستخدام الجوارح والملكات في إعمار الأرض تحقيقا للفوز في الدنيا والآخرة.

والتقوى أخيراً هي التي تشد المؤمن إلى الأوامر والنواهي والتعاليم التي جاءت في كتاب الله نستلهمها في تحديد الطريق إلى المستقبل ونستهديها فيما يحسن بنا أو لا يحسن بنا أن نصنعه.

فهي الرباط الذي يربط بيننا وبين كلام الله... والقوة التي نستحضر بها الذات الإلهية... وهي أخيراً التعبير الصادق عن إرادتنا في أن نجعل كل فكر يصدر عنا أو عمل نقوم به أو إرادة نحققها أو عاطفة تحفل بها نفوسنا شيئاً في سبيل الله. هذا هو معنى العبادة. وهذا ما قصد الله عز وجل إلى إفهامنا إياه حين قال في محكم تنزيله: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات:56).

فنحن بالتقوى نعبد الله في جدنا ولهونا... في سلمنا وحربنا... وفي حبنا وبغضنا – في سعينا إلى اكتشاف أسرار الخلق... في جهادنا دفاعاً عن دينه... وأخيراً في التزامنا بمسؤولياتنا نحو أنفسنا ونحو الآخرين إذ نبني حياتنا الدنيوية على الصورة التي جاء بها كتاب الله شاهداً ومعلماً ونذيراً.

****

فإذا كان ما قررناه هو الدور المعرفي للتقوى وهو الذي يفسر حاجتنا إلى اللطيفة النورانية التي نستقبلها من الله عز وجل بتقوانا، فعلينا بعد ذلك أن ننظر فيما جاء به كتاب الله من فنون المعرفة وأساليب التوجيه لكل جارحة من جوارحنا وملكة من ملكاتنا.

والسؤال الذي يفرض نفسه بعد كل الذي قدمناه هو: هل في القرآن الكريم ما يحدد لنا منهجاً عملياً للمعرفة بعد الإعداد النفسي العميق الذي عبر عنه بالتقوى وجعله رابطة شاملة بين كل إنسان وبين ربه؟ وكيف جاء تفعيل ما يشتمل عليه الإنسان من وجوه النظر والتفكر وأساليب التعامل مع الموضوعات المختلفة للمعرفة؟

ولما كنا نعلم أن النظر العقلي هبة من هبات الله عز وجل فلنبحث في كتاب الله عن طريقته في تربية النظر العقلي وتعيين الحدود التي رسمها له في جملة ما رسمه من الحدود الخاصة بشؤوننا الدنيوية والآخروية.

الفصل الثالث

القرآن منهج المعرفة العقلية

يجدر بنا قبل الإقدام على دراسة الظاهرة العقلية في كتاب الله وتحديد منهج للمعرفة نابع منها، أن نطرح الآراء التي أدلى بها بعض الفلاسفة والدارسين حول ما يسمى التفكير العقلي والتي تعينت لها أبعادها عبر أجيال متعاقبة ظهرت فيها أكثر من حضارة واحدة.

****

والواقع أنّ الفكر النظري الذي التزم لقوانين منطقية في مناقشاته للقضايا المطروحة أمامه قد وجد في منطق أرسطو الصورة التي كادت تبلغ حد الكمال أو هي قريبة منه في نظر الدارسين من التلاميذ والأتباع من بعد.

وبلغ من اهتمام الفلاسفة الإسلاميين والمعتزلة خاصة بهذا العلم أنهم أطلقوا على صاحبه اسم "المعلم الأول".

ولا شك أنّ الفلاسفة والكلاميين الإسلاميين قد حاولوا العثور على سند لمنهجهم المنطقي في كتاب الله فاقتبسوا قوانين المنطق الأرسطي وراحوا يستشهدون بها حين يعترض عليهم أو حين يطرحون آراءهم في قضايا دينية وفلسفية ذات طابع ميتافيزيقي وأيضاً في قضايا علمية مادية في بعض الأوقات.

والملاحظ أنّ المفكرين الإسلاميين بعامة مجمعون على أهمية هذا المنطق وسلامة آلته وصحة قوانينه والدليل على ذلك أن أكثر ما وصل إلينا من تراث الثقافة الإسلامية قد تأثر بهذا المنطق واستعان بقوانينه على درجات متفاوتة من الحرارة والشمول.

لقد وجدنا أثراً لهذا المنطق الأرسطي في كل نشاط فكري يتصل بما وراء الطبيعة أو بعلوم الطبيعة والرياضيات والفقه وأصول الدين حتى علم النحو من العلوم اللغوية.

وإذا كان هناك اعتراض على منهج الفلاسفة والمعتزلة في مناقشة القضايا المطروحة في ميدان الميتافيزيقا أو العقيدة الدينية فهو لم يكن في الغالب اعتراضاعلى كل المنطق ورفعاً لكل ما جاء فيه من القوانين والحدود، بل كان اعتراضاً على بعض ميادين النظر ولاسيما ميدان الإلهيات من موضوعات الفلسفة وبعض مسائل العلم الطبيعي. فالغزالي، أبو حامد، رحمه الله، لم يقصد مثلا في كتابه "تهافت الفلاسفة" أن يسقط كل ما جاء به الفلاسفة من الرأي وما طرحوه من الحلول والتأملات العقلية، بل قصد بهذا الكتاب الكشف عن ثقافتهم في بعض مسائل العلم الإلهي، وبعض مسائل العلم الطبيعي، لا في كل مسائل هذين العلمين، ولا في غيرها من مسائل علومهم الأخرى، كما أوضح ذلك غاية الإيضاح في مقدمة كتابه "مقاصد الفلاسفة"[1].

ويذكر الدكتور عبد الحليم محمود في ص 20 من كتابه "المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي" أنّ: "مما لا شك فيه، أنّ كتابه هذا "أي تهافت الفلاسفة" محاولة جريئة كل الجرأة، موفقة كل التوفيق.

وما كان المقصد الأول والهدف الأساسي، لهجومه، هو هدم الآراء في نفسها، إذ أن بعضها صحيح موافق للدين. وإنما كان هدف الامام الغزالي: هدم المنهج العقلي الذي استندت إليه هذه الآراء".

ويتابع الدكتور عبد الحليم محمود عرضه قائلاً: "فخلود النفس مثلاً: رأي يقول به الإمام الغزالي، ويقول به الفلاسفة، ولكن الإمام حمل معولاً، وأخذ يهدم بيد قوته المسلك العقلي الذي أثبت به الفلاسفة خلود النفس، فانهارت أدلتهم وتهافتت.

"لقد فعل ذلك مع إيمانه بالخلود. وهو لم يلتزم في الكتاب إلا تكدير مذهبهم، والتغيير في وجوه أدلتهم، بما يبين تهافتهم. ومقصوده: تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة، وظن أنّ مسالكهم نقية عن التناقض، ببيان وجوه تهافتهم".

1 . انظر ص 18 من كتاب "تهافت التهافت" لابن رشد، تحقيق الدكتور سليمان دنيا – الطبعة الثانية – نشر دار المعارف بمصر.

فالدكتور عبد الحليم محمود يقرر كما نرى أن الغزالي قد قصد إلى هدم العقل الفلسفي كله، وبتعبير آخر منهج التفكير العقلي عند الفلاسفة.

لكنّ الواقع أن الغزالي لم يستطع هدم هذا المنهج كله بدليل أنه وافق الفلاسفة في أكثر ما قالوه وقرروه من الآراء، وإن كان قد كشف عن تهافتهم في بعض المسائل وحسب. وفي كتاب المنقذ من الضلال للغزالي نفسه ما يؤكد جزئية التهافت عند الفلاسفة.

فإذا تصفحنا كتاب "المنقذ من الضلال" وقرأنا ما ورد في ص 57 من كتاب الدكتور عبد الحليم محمود فما بعدها وجدنا تحت عنوان "الإمام الغزالي والفلسفة" ما يلي:

"والفلسفة التي نعنيها هنا: إنما هي المحاولات المستمرة، التي بدأت منذ العهد اليوناني القديم – ولا تزال – لبناء "ما وراء الطبيعة" على العقل، إنها هي المحاولات العقلية لاختراع ما وراء الطبيعة وابتداعه، بحيث يأخذ العقل حريته في الإثبات والنفي، غير متأثر إلا بمقاييسه هو التي يفرضها، وإذا كان العقل قد اشتغل بالطبيعة والرياضيات، وإذا كانت الطبيعيات والرياضيات قد أدخلت في الفلسفة كأجزاء لها، فإنّ الهدف الأول للامام الغزالي إنما هو جانب ما وراء الطبيعة.

"ومما لا شك فيه: أنّ العقل قد أنتج ثماراً يانعة في الطبيعيات والرياضيات، لقد أقام القواعد المحكمة، ونظم المبادىء المتقنة، وانتهى به الأمر إلى أن شيد الطبيعيات والرياضيات على أسس متينة".

ويتابع الدكتور محمود فيقول:

"وغرّ هذا النجاح قوماً، فاعتقدوا أن في استطاعة العقل أن يجول في كل ميدان: في استطاعته أن يجول في الطبيعة، وفيما وراء الطبيعة، في العالم وفيما وراء العالم، في المادة، وفي المجردات، في عالم الشهادة وفي عالم الغيب.

"وكانت النتيجة أن أقحموا العقل في عالم ما وراء الطبيعة، فكانت الفلسفة الإلهية العقلية، وكان الإخفاق التام للعقل في هذا الميدان".

****

هكذا يتبين لنا أنّ الإمام الغزالي لم يهدم في الواقع غير موقف للفلاسفة يتعلق بمسائل تتصل بما وراء الطبيعة. لكنه في الوقت نفسه قد أخطأ كما أخطأ الفلاسفة حين حصر المعرفة بالإلهيات في منهج يستند إلى الرياضات الروحية ويعتمد على نفحات الكشف الإلهي التي يتعرض لها العابد المتصوف وينتظر أن تفيضها عليه العناية الإلهية.

أخطأ الفلاسفة حين رفضوا كل منهج من مناهج المعرفة غير منهج العقل النظري وهم يناقشون قضايا ما وراء الطبيعة، وأخطأ الغزالي حين رفض كل منهج من مناهج المعرفة غير منهج الكشف الإلهي والتعرض لنفحات الرحمة الإلهية بالعبادة وتطهير الذات في دأب لا يتوقف ولا ينقطع.

****

لكننا في الوقت نفسه لا نقرر خطأ الطرفين بإطلاق. إن الخطأ هو في الوقوف عند منهج العقل النظري دون سواه، كما هو في الوقوف عند منهج الكشف المباشر الذي يتم بتعرض العابد لنفحات الرحمة الإلهية.

أما فيما يتعلق بمنهج الكشف المباشر فقد طرحنا وجهة نظرنا في هذا الموضوع خلال الفصل السابق وبينا الدور الكبير الذي تقوم به ظاهرة التقوى في حياة المسلم. قلنا: "إذا كان للتقوى وما ترمز إليه وتعنيه من تطهير النفس ومحاسبتها والوعي بحضور الله عز وجل، دور إيجابي في تنوير القلب وحسن استخدام السمع والبصر

وتحقيق الازدهار والتفتح في الملكات التي منحتنا إياها العناية الإلهية، فهذا لا يتعارض مع الدعوة إلى استخدام أساليب أخرى في المعرفة" [1].

ونقول الآن مثل هذا القول في منهج المعرفة العقلية. فهذا المنهج ليس باطلاً كله بل فيه الكثير من الحق وقد التزمت له الآيات القرآنية في مواضع كثيرة من كتاب الله. والخطأ فيه هو إصرار أصحابه على اعتباره المنهج الوحيد الصالح للبحث عن الحقيقة حيث تكون وفي أي مستوى من المستويات.

والجدير بالذكر أنّ تلامذة أرسطو وأتباعه ممن جاءوا بعده في عدد من القرون قد عبروا عن يأسهم من علم الإلهيات فتفرغ بعضهم لعلم الطبيعة، وبعضهم لعلم الأخلاق خلال القرن الثالث قبل الميلاد، حتى لقبوا بالطبيعيين ولا سيما (تاومرسطيس) و (استواثون) اللذين خلفا أرسطو في رياسة (دار العلم) التي كانت للمشائين"..

****

وتواجهنا الظاهرة نفسها عند فلاسفة مشرقيين متأخرين منهم "فيلون" اليهودي و"أمونيوس سكاس" و"أفلوطين" ممن طرحوا نظرية الفيض التي تتدرج بها عملية الخلق ابتداء من العقل الأول، أول فيض من الذات الإلهية حتى المادة. وهذه صيغة تعلن عن فشل النظر العقلي الأرسطي في مناقشة قضايا ما وراء الطبيعة، وإن كانت هي في ذاتها "أي صيغة الفيض" قد عجزت عن تكوين الرؤية الحقيقية التي تحدد طبيعة العلاقة بين المخلوق والخالق. وهكذا انهار أصحاب المذهب العقلي كما انهار أصحاب المذاهب الذين جاؤا بعدهم أو قرروا الامتناع عن مناقشة قضايا ما وراء الطبيعة.

---

1 . انظر الفصل السابق ص 269.

هناك حقيقة لا شك فيها هي أن الله لم يخلق لنا ملكة التفكير العقلي عبثاً... إنّ لهذا التفكير دوره في تحقيق نوع من المعارف وفي مواجهة بعض القضايا التي تعرض للإنسان في حياته الدنيوية... هذا التفكير يقوده دون ريب إلى التساؤل عن حقيقة الكون وما وراءه وإلى البحث عن إجابات واضحة للكثير من الأسئلة:

من نحن؟ وأين كنا؟ وإلى أين المصير؟ وما هي علاقتنا بالأكوان من حولنا؟ وما هو الدور الذي يجب أن نقوم به؟ وما معنى أن يكون لنا عقل يفكر؟ وقلب يعي؟ ونفس تنفعل وتشد؟

هذه الأسئلة وعشرات غيرها كثيرة تفرض نفسها علينا. والثابت من التجربة العملية أنّ للعقل دوره في البحث عن كثير من الإجابات. وقد قرر هذه الواقعة كل من شارك في النشاط العقلي وأسهم في إثراء العقل الإنساني...

الفلاسفة استندوا ولا يزالون يستندون في مناقشاتهم وسعيهم إلى الحقيقة على مناهج عقلية صرفة...

والعلماء والمفكرون على اختلاف نحلهم وميولهم أكدوا دور العقل النظري في تقرير كثير من الحقائق وحل الكثير من المشكلات.

حتى الذين نادوا بإسقاط المنهج العقلي لم يسعهم إلا الاعتراف بنجاح العقل النظري في وضع القواعد المحكمة لكثير من العلوم. ولعل الشاهد الأكبر على ذلك هو ما ورد في كتاب "المنقذ من الضلال" لحجة الإسلام الغزالي. فقد حصر ما صح عنده من قضايا الفلسفة الأرسطية التي اهتم بنقلها إلى ميدان الفلسفة الإسلامية كل من ابن سينا و الفارابي بخاصة في ثلاثة أقسام:

1) قسم يجب التكفير به.

2) وقسم يجب التبديع به.

3) وقسم لا يجب انكاره أصلا.

وقد أورد الدكتور عبد الحليم محمود خلاصة رأي الغزالي تحت عنوان "أقسام علومهم" قال:

"اعلم أنّ علومهم – بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه – ستة أقسام: رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية" [1].

فإذا استعرضنا رأي الغزالي في هذه الأقسام خرجنا بالآراء التالية:

1) الرياضيات: وهي متعلقة بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها، ومعرفتها [2]..

2) المنطقيات: وهي قسم لا يتعلق شيء منه بالدين نفياً وإثباتاً بل هي النظر في طرق الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها , وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه. وإن العلم: إما تصور، وسبيل معرفته الحد. وإما تصديق، وسبيل معرفته البرهان. وليس فيهذا ما ينبغي أن ينكر [3].

3) الطبيعيات: هذا القسم يبحث عن عالم السماوات وكواكبها، وما تحتها من الأجسام المفردة: كالماء والهواء والتراب والنار. ومن الأجسام المركبة: كالحيوان والنبات والمعادن, وعن أسباب تغيرها واستحالتها، وامتزاجها، وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان، وأعضائه الرئيسية والخادمة، وأسباب استحالة مزاجه، وكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضا إنكار ذلك العلم إلا في مسائل معينة ذكرناها في كتاب "تهافت الفلاسفة" وما عداها مما يجب المخالفة فيها، فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها.

"وأصل جملتها: أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى، لا تعمل بنفسها بل هي مستعملة من جهة خالقها، والشمس والقمر والنجوم، والطبائع مسخرات بأمره، لا فعل لشيء منها بداية عن ذاته.[4].

---

1 . انظر ص 100 من كتاب "المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي" للدكتور عبد الحليم محمود.

2 . ص 100 من المرجع السابق

3 . ص 100 – 101 من المرجع السابق.

4 . انظر ص 103 – 104 من المرجع السابق.

4 –الإلهيات أو ما وراء الطبيعة: في هذا القسم توجد أكثر أغاليطهم فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها. ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها وتبديعهم في سبعة عشر.

"أما الثلاثة من المسائل فهي: أنّ الأجساد لا تحشر فالثواب والعقاب للأرواح وحسب، وأن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات، وأن العالم قديم وأزلي[1].

5) **السياسات**: ومجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية و السطانية. وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء[2].

6) **الخلقية**: وجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها.[3].

****

فإذا تمعّنا في رأي الغزالي حول أقسام العلوم عند الفلاسفة تبين لنا أن قصور العقل النظري عنده يتناول موضوعات ما وراء الطبيعة وما يتصل بهذه الموضوعات من المسائل التي أشار إليها في قسم الطبيعيات.

وإذا فإن حصيلة هذا العرض تثبت لنا أن خمسة من الأقسام الستة في الموضوعات التي ينصرف العقل إلى دراستها هي الجانب الذي لا اعتراض عليه. ولذلك يتأكد لنا أن المهمة التي يقوم بها العقل النظري في الحصول على المعارف التي بها تتوفر مصالح الناس وتتحقق منافعهم في الدنيا هي مهمة ذات بال... والقيام بها جزء من المسؤوليات الدينية التي يجب أن ينهض لها المسلم في أثناء حياته.

---

1 . انظر الصفحات 104 – 108 من المرجع السابق.

2 . انظر ص 111 من المرجع السابق.

3 . انظر ص 111 من المرجع السابق.

وإذا كنا قد ربطنا بين النشاط العقلي النظري وبين المسؤوليات الدينية فلأن هذا النشاط السوي هو الذي يجعل الإنسان مسؤولا أمام نفسه وأمام ربه. فهو إذاً جزء هام من أجزاء النشاط المعرفي الذي يفترض في الإنسان أن يقوم به. والفرق بين المسلم وغير المسلم بالنسبة لهذا النشاط، هو أن العقل عند المسلم أو لنقل القلب، وهو اللفظ الذي ورد في كتاب الله في هذا المعنى، يلتزم عند المسلم بتوجيهات عقيدة الوحدانية والمناخ الروحي الذي تحيطه به. أما غير المسلم فهو ملتزم بتوجيهات عقيدته الخاصة.

والجدير بالذكر أنّ الإنسان في نشاطه العقلي مفطور على البحث عن الأسباب القائمة وراء المظاهر والوقائع التي يقع عليها حسه أو يتعامل معها على نحو من الأنحاء. إنّ هذا البحث هو وحده الذي يفسر الميل النظري لدى الإنسان، أو ذلك النزوع الذي يدفعه إلى البحث عن تعليل لكل شيء. ولنلاحظ أن هذا الميل، الذي نصفه بأنه نظري، لا يوجد في جميع الحالات بدرجة متساوية.

فهناك حضارات بأكملها كانت تعتمد على الخبرة والتجربة المتوارثة، وتكتفي بالبحث عن الفائدة العملية أو التصرف الناجح، دون سعي إلى إرضاء حب الاستطلاع الهادف إلى معرفة أسباب الظواهر. وهكذا كانت هذه الحضارات تشيد مباني ضخمة، أو تقوم في تجارتها بحسابات دقيقة، دون أن تحاول معرفة "النظريات" الكامنة من وراء عملية البناء أو الحساب، وحسبها أنها حققت الهدف العلمي المطلوب فحسب. بل إن في وسعنا أن نرى من حولنا أشخاصا لا يهتمون إلا "ببلوغ النتيجة"، ولا يكترثون بأن يسألوا "لماذا" كانت النتيجة على هذا النحو، وربما رأوا في هذا السؤال حذلقة لا تستحق إضاعة الوقت، ما دامت الإجابة عنه لن تقدم ولن تؤخر في بلوغ النتيجة المطلوبة".[1].

****

1 . انظر ص 38 من كتاب " التفكير العلمي " للدكتور فؤاد زكريا من سلسلة "عالم المعرفة" الصادرة في الكويت – آذار 1978.

ما يهمّنا من هذا النص الذي اقتبسناه أنّ صاحبه يؤكد أهمية البحث عن الأسباب عند العقل النظري. ثم أننا نفترق هنا عن المؤلف في أن ما نتعرض له من العقل النظري ليس في حدود البحوث العلمية المادية كما هو قصد المؤلف بل هو العقل النظري الباحث عن القوى المغيبة.

والعوامل الخافية عن الحواس، والكامنة وراء الظواهر الكونية، هي، أي القوى والعوامل، التي تختصر في قوة واحدة أولى أو عامل واحد أول هو خالق هذه الظواهر دون استثناء. إنّ العقل النظري عندنا هو العقل القادر على استيعاب الكون كله برؤية شاملة، والقادر على البحث عن القوة القائمة وراء هذا الكون.

****

والواقع أنّ القرآن الكريم قد توجه في عشرات بل مئات من آياته البينات إلى هذا العقل مستنداً إلى ما فطر عليه من التوازن وإدراك الحدود التي يجدر به أن يقف عندها فلا يثير موضوعات تفصيلية لا تقدم ولا تؤخر في تحقيق المعرفة المقصودة من نشاطه. أي أن الدعوة القرآنية التي تحض العقل النظري على التأمل والتفكر فيما حوله وفيمن يتعامل معه من الناس، وفيما يضطرب في نفسه من المشاعر والأشواق قد عينت المدى الذي يمكن أن يبلغه في النشاط الذي يمارسه.

والجدير بالذكر أنّ الدعوة القرآنية لا تقف عند ملكة الإلهام التي يقتصر الصوفي على اللجوء إليها في تعرضه لنفحات الرحمة الإلهية وهو يتأمل الذات الإلهية. بل تجاوز هذه الملكة لتوقظ القلب وتلفته إلى آيات الله في خلقه. فإذا قلب نظره فيها فإنه لا بد منتهٍ إلى الإقرار بوجود قوة خالقة مدبرة أخرجت الكون من العدم إلى الوجود أو من الموت إلى الحياة، كما أنها قادرة على إخراج هذا الكون ومن فيه من الحياة إلى الموت.

وهنا نتساءل ما هي الحدود التي رسمها القرآن لأبعاد المعرفة العقلية النظرية؟ هل هي حدود مفتوحة كما يقول الفلاسفة؟ أم هي حدود ضيقة جدا كما يقول المتصوفة؟ أم هي مخالفة لهؤلاء وأولئك؟

الجواب عن هذا التساؤل يكمن في النصوص المبسوطة بين أيدينا والموضوعة تحت أنظارنا في كتاب الله.

****

لا بد للخلق من خالق

أول ما يلفت النظر في المحاورات التي سجلها الوحي السماوي أن الله عز وجل قد طرح قضية هي من البديهيات المسلمة، وخلاصتها أنه لا بد للخلق من خالق. إذ لا يمكن لهذا الكون العظيم أن يتحقق وجوده دون أن تكون وراءه قوة خالقة مبدعة ومفارقة لكل الوقائع الخلقية المشهودة. هذه الوقائع العاجزة عن أن توجد شيئاً غير موجود فتخرجه من الموت أو العدم إلى الحياة أو الوجود.

ولذلك فقد تساءل الله عز وجل في محكم تنزيله موجها سؤاله بصيغة الاستفهام الإنكاري إلى الضالين والمشركين. قال لهم وهو يحاورهم حول موقفهم الرافض لدعوة الإسلام والمنكر على النبي محمد صلى الله عليه وسلم صدقه في حمل الرسالة: " أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38)" (سورة الطور)[1].

فالقرآن هنا يتحدى قلوب المشركين حين يسألهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو أن يخلقوا أنفسهم، أو أن يخلقوا مثل السماوات والأرض، أو أن يثبتوا بأن عندهم خزائن ربك، أو أنهم قادرون على الاستماع إلى ما يجري من الأحاديث في السماوات العلى.

1 . المقصود بالتقول هنا هو زعمهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اختلق القرآن من عند نفسه.

ومن الطبيعي أنّ هذا التحدي إنما يتوجه إلى القوة العاقلة عند الإنسان. فهو يحاور أعداء الدعوة بالمنطق الذي يلتزمونه والأسلوب الذي يعتمدونه في محاورة بعضهم بعضا. وهذا حد عيّنه الوحي السماوي لجانب من جوانب النشاط العقلي عند الناس.

الآيات الدالة على نعم الخالق

أما الآيات الدالة على الخالق فإن دلالتها داخلة في حدود الوعي المتعقل عند الإنسان... إنه إعلان مفصل عما يحتويه الخلق من فنون النعم وألوان الفضل الإلهي، وعظمة النظام الذي ينتظم به الكون وما فيه ومن فيه، والحكمة الفائقة التي يتحقق بها التوازن العجيب بين أشياء الخلق كلها... توازن بين الكواكب والنجوم والمجرات... وتوازن في تعاقب الحياة والموت... وتوازن في نزول المطر... وتوازن في صنع الحياة والأحياء في البر والبحر والجو... وتوازن في الحفاظ على سلامة المجتمعات في ضوء قانون المداولة... وتوازن في بنية الكائن الحي نفسه... وتوازن في الغرائز التي تتشكل بها القوى الدافعة في الإنسان... وتوازن في الغنى والفقر... وتوازن في القوة والضعف والذكاء والغباء.. إلخ. وفيما يلي نقتبس من كتاب الله شواهد على كل ظاهرة من ظاهرات الفضل الإلهي والآيات الدالة على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى التوازن الذي يحفظ للكون بقاءه وللحياة استمرارها.

1) آية تدل على وجود الخالق جل وعلا: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (البقرة:164).

2) آية تتحدث عن نعمة من نعم الله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ" (فاطر:3).

3) آيات تحض على التفكر في الخلق كله: " أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21)" (سورة الغاشية)

****

وطبيعي أن الغاية من هذه الآيات الكريمة ومثيلاتها هي الحض على التفكير ولفت الأنظار إلى الدلالات الواضحة التي تشير إلى وجود الخالق جل وعلا.

والجدير بالذكر أنّ الموضوعات التي تناولها الوحي السماوي وناقشها مع الرافضين لدعوة السماء والمتمردين على الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، كثيرة متنوعة... فهي تارة تتصل بأحوال الأمم السابقة، وتارة أخرى تتصل بالمواقف التي يتخذها فريق من المشركين بدعوى أنهم يسيرون على هدي الآباء والأجداد، وهي مرة ثالثة تسلط ضوءاً على أنواع من السلوك إتصف فيها فريق المنافقين، أو فريق المتعنتين في رفضهم دون أي مبرر ولا لأي سبب وجيه اللهم غير المكابرة والعناد. وقد تتوجه الآيات القرآنية إلى قلوب الناس عن طريق غير مباشر حين تروي وقائع تاريخية ذات دلالات تربوية وتعليمية. ولعل القصص القرآني كله، وهو غير قليل، قد قصد إلى تحقيق الغرض التربوي التعليمي.

ولما كانت المعاني التي تتضمنها هذه الآيات جميعها موجهة إلى ملكة التفكير عند الإنسان فإنّ من المسلّم به أنّ الدعوة القرآنية لا تحاول فرض العقيدة عن طريق القسر والإرغام بل تؤكد بما جاءت به من صيغ الحوار ومادة القصص حق الإنسان، الكافر والمؤمن، في أن يعتنق العقيدة المطروحة عليه بعد إشراكه في محاورة تستند إلى الوعي السليم والفكر المتزن إلى جانب حسن النية. وهذا أمر لا يتحقق إلا بتوفير حرية الاختيار لتكون مسؤولية الإنسان على قدر ما يتمتع به من هذه الحرية.

هكذا تبدو الأبعاد الكاملة لظاهرة التفكير النظري التي هي في الحقيقة الطابع العام للأدب القرآني كله.

ولما كانت حرية الاختيار تعني حرية التفكير... فقد وجب أن نورد قصة النشاط العقلي الذي يغذيه القرآن الكريم باعتباره مدخلاً ضرورياً للتعرف من بعد إلى أنواع المحاورات القرآنية التي تستند إلى ما فطرت عليه ملكة التفكير عند الإنسان من الوعي المتزن وحسن الإدراك. وهذا يعني أنّ الوحي السماوي يؤكد ثقته بالفطرة التي فطر الإنسان عليها، ويعمل على إعادة الإنسان إلى مكانه الطبيعي من هذه الفطرة بحيث يستمد منها أحكامه ويصحح في ضوئها مواقفه. كما يعني أيضاً بأنّ الوحي السماوي حريص على منح ملكة التعقل عند الإنسان دورها في صنع مصيره وتوفير الظروف التي تتيح لها فرصة القيام بنشاطها في حدود ما خلقت له.

وسنتبين من خلال النصوص القرآنية التالية تلك الشروط والحدود والقدرات التي يقرها الوحي السماوي لملكة التفكير وللكفاءات العقلية عند الإنسان بالإضافة إلى أنواع المحاورات وبعض الموضوعات التي دارت حولها أو تناولتها لجعل عقيدة الوحدانية قضية معقولة قبل كل شيء...

أما أهم الشروط التي توفرت لملكة التفكير العقلي عند الإنسان فهي الحرية بكامل معانيها فهناك:

أ – الحرية النابعة من تكريم الإنسان وكونه جديرا بتحمل المسؤولية أمام الله عز وجل بغض النظر عن لونه وموضعه في المجتمع. أما التكريم فقد ورد في قوله عز وجل " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " [1].

وأمّا أنّه جدير بتحمل المسؤولية أمام الله عز وجل وأن ليس له إلا ما سعى وما يصدر عنه من قول وعمل وأنه لا شفاعة لأحد عند الله إلا لمن أذن له فقد ورد في قوله عز وجل في سورة النجم:"وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (41) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (42)". وقوله أيضاً في سورة عبس: "فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)" وما جرى مجرى هذه الآيات كثير جداً في كتاب الله.

ب – حرية حمل الأمانة وحق الإنسان في الاختيار. وقد ورد هذا المعنى في قوله عز وجل: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (البقرة:256). وتأكد حق الإنسان في حمل الأمانة حراً دون أي إكراه بالتوجيهات الضابطة للعلاقة التي يجب أن تكون بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الناس. فجاء فيها قوله عز وجل: " فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ (الشورى:48)". وجاء في هذا المعنى قوله تبارك وتعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس:99)".

والثابت والواضح من هذه الآية الكريمة أن الله عز وجل ينكر على نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يطمح إلى إدخال الناس كلهم في دين الله بالإكراه. ذلك لأنّ الإكراه يفقد الإنسان حقه في الاختيار الذي يسأل عنه. ولو شاء الله أن يكره الناس على الإيمان لجعلهم كلهم مؤمنين. لكنه منحهم فرصة كاملة لصنع مصيرهم باللجوء إلى الفطرة الخيرة التي فطروا عليها.

هكذا يتبين لنا أنّ الوحي السماوي قد حرص على توفير المناخ الملائم للإنسان للتمتع بحريته في الاختيار بأن منحه حقه الكامل في المساواة مع كل أبناء جنسه وبأنّ فضله على كثير ممن خلق تفضيلاً كبيراً، كما حال دون إكراهه على اختيار طريق الخير والهداية بل اقتصر على وضعه أمام طريقين طريق الخير وطريق الشر. يضاف إلى ما سبق من أنه فطره على الإيمان وأشهده على ذلك.

****

الآن وقد أحطنا علماً بالدور البناء الذي أعطاه القرآن للإنسان باعتباره مفطوراً على عقيدة الوحدانية وذا حق في التفكير المتحرر من القيود ومن كلّ إكراه يقسره على اختيار ما لا يريده, فلننظر إلى بعض أنواع المحاورات التي وردت في كتاب الله فقصد بها تنبيه ملكة التفكير السليم وردّ الأمور إلى نصابها الطبيعي وبالتالي مساعدة الإنسان على التحرر من القيود والعراقيل التي تحول دون ممارسة تفكيره المستقل.

- تحرير الإنسان من الخضوع لسلطان الآباء والأجداد: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (البقرة:170)"
- تحرير الإنسان من الاغترار بقوته وتذكيره بما كان عليه من أنّ أمماً سابقة سادت ثم بادت رغم أنها كانت أكثر منه ومن جماعته قوة وبأساً... وكان هلاكها بسبب الفساد الذي غرقت فيه حتى أذنيها. قال تبارك وتعالى في هذا المعنى: " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" (الروم:9).
- تحرير الإنسان من غطاء الغفلة وتنبيهه إلى ما في خلق السماوات من دقة وانتظام وتناسق بحيث يستحيل أن يجد فيها الإنسان ثغرة تدل إلى فوضى الخلق واضطراب شؤونه. قال تبارك وتعالى في هذا المعنى في سورة الملك: "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)".
- حض العقول والقلوب على التفكر فيما في الأرض من دلائل وآيات على عظمة الخلق الإلهي وحكاية ما يردده أصحاب القلوب المؤمنة. مصداق ذلك في قوله عز وجل: " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج:46)".
- لفت النظر إلى جدية الخلق والغرض من استخلاف الإنسان في الأرض... مما يساعد العقل الإنساني على تحقيق رؤية سليمة لما حوله وعلى إعادة النظر في الموازين التي اتخذها لنفسه حين تكون هذه الموازين غير متوافقة مع نداء الفطرة. وفي هذا المعنى يتساءل الله عز وجل منكراً على كثير من الناس استهتارهم بما توحي به حقائق المخلوقات في قوله عز من قائل: "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" (المؤمنون:115).. كما يقول في معرض التأكيد على الغاية من الخلق: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات:56).

- وطبيعي أنّ المقصود بالعبادة هنا ليس الالتزام بالأركان المفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج وحسب، بل المقصود هو أن ينسحب جو العبادة على كل عمل أو قول أو نية تصدر عن الإنسان. بحيث يعيش المؤمن في جو العبادة كيف يكون وأين يكون...في حله وترحاله...في فكره وقوله... في تجارته وصناعته...في جده ومرحه...في صحته ومرضه...في رعايته لأسرته... في استمتاعه بما أحلّ له وامتناعه عمّا حرم عليه. فلا يخرج من جو عبادة إلا ليدخل في جو عبادة أخرى بحيث يتصرّف دائماً كما لو أنّه بين يدي الله عز وجل.. فإن لم يكن يرى الله فإنّ الله يراه ويرى ما ظهر منه وما بطن.
- لفت النظر إلى استمرار العناية الإلهية التي لا سبيل لبقاء الخلق على ما هو عليه إلا بهيمنتها المستمرة عليه... والإشارة إلى أنّ الوقائع المتعاقبة من مطر وصحو...وخصوبة وقحولة...واستمرار لدورات الأفلاك وتحركاتها في مداراتها مرهونة كلّها بهذه العناية...وأنّ تعاقب الأحداث والوقائع على صورة معينة وبقدر معين لا يمكن أن يتم دون هذه العناية الإلهية... حتى مسيرة الحياة في داخل الجسد البشري هي أيضاً بما تحتويه من أسرار خفية على العقل الإنساني تشدّ هذا العقل إلى الإحساس القوي الجارف بحضور العناية الإلهية. مصداق هذا كله في الآيات التالية:
- "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ" (الحج:65)..
- "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (يونس:5) "
- "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (يس:38).
- "وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (الإسراء:111) ".
- "وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ" (الحجر:21).
- "وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ" (المؤمنون:18).

- "وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ" (الشورى:27).
- "وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ" (الزخرف:11).
- "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (القمر:49).

والواقع أنّ الآيات المماثلة في نهجها وطريقتها للآيات التي أثبتناها في الفقرات السابقة أكثر من أن نحصيها هنا. وكلها تشترك لتحقيق غرض واحد هو إيقاظ القلب وتنشيط ملكة التفكير عند الإنسان للتأمل في النظام الدقيق الذي لا سبيل للفوضى إليه... ولا تفسير له بالمصادفات... ولا بقاء له إلا باستمرار العناية الإلهية مهيمنة عليه في كل وقت.

ولعلنا لا نحتاج إلى توكيد الظاهرة التي ترافق التأمل الفكري الجاد في كل الموجودات ما ظهر منها وعرفت آثاره وما خفي منها وظهرت بصماته، بحيث يشعر كلّ إنسان مع هذا الوجود بوجود سلطان علوي يزوده بأسباب الحياة وفنون النعم ويمنحه فرصاً لا تنقضي للتعرف إلى معجزة الخلق متمثلة في الآف الوقائع التي تقتحم السمع والبصر والفؤاد وتشيع الروع والخشية في النفس، وتذكر هذا الإنسان في كل وقت من الليل والنهار أنه بين يدي إله خالق عظيم يعطي ولا حد لعطائه ويوزع نعمه على الناس كافة الصالح منهم والطالح.

من هنا يتبين لنا الدور الكبير الذي يمكن للقلب المفكر أن يقوم به وللنشاط الذي يجب أن يصدر عنه ويشعره بأنّ التفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما وما في باطنهما ليس ترفاً من الترف ولا هو عمل تطوعي بل هو ضرورة مفروضة ترتبط بمفهوم العقيدة وما يترتب على العقيدة من التزامات العبادة والتوجه إلى الله عز وجل.

فالعبادة مناسك وشعائر مرسومة لنا... والعبادة نشاط فكري نحن إليه مدفوعون... والعبادة عاطفة كريمة ذات وظيفة روحية واجتماعية كما أنها ذات دور صحي يجدد في النفس فنونها ويحقق صفاءها ويمنح القلب حرارته وقدرته على الاستنارة.

****

لكنّ التأمل في خلق السماوات والأرض يبقى محصوراً في حدود ما تستوعبه الحواس أو ما تدل إليه وتؤكد وجوده بطريقة غير مباشرة. فالتفكير عند الإنسان، كما علمنا الله عز وجل، هو ثمرة التعامل مع الموجودات التي تحيط به تؤثر فيه ويؤثر فيها.

وفي هذه الموجودات كلّها ما يحض الفكر الإنساني على التحرك مستضيئاً بالحقائق والبدهيات التي فطر الإنسان عليها... وهي حقائق وبدهيات لا تقبل المناقشة ولا سبيل إلى البرهنة عليها والإحساس بها إلا بفضل الفطرة الكامنة، فمن أنكر موحيات هذه الفطرة فقد أثبت عناده ومكابرته وكشف عن سطان الظلام في نفسه.

والقرآن بعد ذلك لا يهتم بتقنيات المنطق وقوانينه التي وضعها الإنسان لنفسه... ذلك لأنّ هذه التقنيات والقوانين مستمدّة كلها ومحكومة كلها بالبدهيات والحقائق المركوزة في صميم الفطرة الإنسانية.

****

والجدير بالذكر أنّ القرآن إذ يعتبر سلامة التفكير موصولة بسلامة الفطرة التي فطر الإنسان عليها يعبر عن هذه الظاهرة بكلمة "بصيرة". فإذا كانت هذه البصيرة واعية مدركة كانت الهداية مكان التفكير المنطقي السليم الذي يعمل عمل الميزان في وزن ما يعرض عليه من الوقائع والأحداث. إنّ الرؤية الحقيقية في تعليم القرآن هي رؤية البصيرة لا البصر... كما أنّ العمى الحقيقي هو عمى البصيرة لا البصر.

ومن هنا كان قول الله عز وجل في محكم تنزيله: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج:46).

وتتكرر الإشارة إلى أهمية البصيرة وخطرها في صنع الهداية وتحقيق الرؤية الصالحة... فالله عز وجل يقول لرسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم في معرض تعليمه له: "قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (يوسف:108). ويقول في مناسبة أخرى: "بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ" (القيامة:14)، ويقول في مرة ثالثة "هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (الأعراف:203).. وهو لا يقصد في أقواله هذه وفي غيرها من الأقوال المشابهة غير البصيرة الموصولة بالفطرة تلك التي تتحقق بها الرؤية السليمة.

لكن هل يعني وجود البصيرة المستنيرة أنّ في وسع الفكر الإنساني أن يتناول بموازينه ومقاييسه كل الموضوعات التي يمكن أن يطرحها التأمل في خلق السماوات الأرض وما بينهما أو ما في باطنها؟

هل يستطيع هذا الفكر أن يتناول بهذه المقاييس والموازين الذات الإلهية التي قال الله عنها: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"؟ (الشورى:11)، الجواب بالسلب طبعاً... إنّ الفكر النابع من البصيرة قادر على الوصول إلى الله عز وجل والتسليم بوجوده حين يتفكر في خلق السماوات والأرض ولكنّه أعجز من أن يستوعب الذات الإلهية نفسها. وقد أخبرنا الله عز وجل باستحالة هذه المعرفة حين قصّ علينا ما جرى لموسى عليه السلام وقد طلب من ربه أن يجعله ينظر إليه. قال تبارك وتعالى في هذا المعنى: "وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ" (الأعراف:143).

الآية الكريمة هنا صريحة الدلالة في أنّ الملكات الإنسانية بما فيها ملكة التفكير أعجز من أن تستوعب الذات الإلهية نفسها بالعين المبصرة والفكر الموصول بالحواس. ولذلك فإنّ كل نشاط فكري يتّجه إلى الذات الإلهية للتعرف إليها في ضوء المقاييس التي يعتمدها ويلجأ إليها قاصر عاجز عن الإحاطة بالذات الإلهية نفسها. ومن هنا يتبين لنا وجود حدود قصوى للفكر الإنساني لا يستطيع مجاوزتها فإن فعل عاد فاشلاً محسوراً.

والقصور في الفكر الإنساني ليس بالنسبة للذات الإلهية وحسب بل هو قصور قائم بالنسبة لما دون ذلك، لعدد من المخلوقات منها الملائكة ومنها الروح التي طالما جهرت عقول المتفلسفين للتعرف إليها فلم تفز في هذا الميدان بقليل أو كثير.

ومن هنا تدخل علاقة الفكر الإنساني بعالم الملائكة في حيز المغيبات التي لا سبيل إلى اختراق حجبها إلا بعون من الله عز وجل وبعناية قد تستثني بعض الناس من عموم القاعدة. وما ينطبق على الملائكة ينطبق على الروح نفسها. وفي هذا المعنى جاء قوله تبارك وتعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء:85)

هكذا تتحدد قدرات الفكر الإنساني فلا يستطيع مجاوزة الحدود التي رسمت له.

والجدير بالذكر أن الجهود التي بذلت من قبل الفلاسفة الذين خيل إليهم أن في وسعهم اختراق الحجب والنفاذ إلى عالم المغيبات لم يبلغوا من هذا الطريق الذي رسموه لأنفسهم بعد طول المعاناة والمكابرة وبعد مرور عشرات القرون على بذل جهودهم المتواصلة، إنهم لم يبلغوا من هذا الطريق غير مفهومات غامضة متناقضة لا تعني شيئاً محدداً ولا تساعد على تحقيق أي رؤية واضحة.

ولذلك فقد كانت هذه الجهود عبثاً لا طائل وراءه. صحيح أنّ المهتمين بنجوى النفوس وخفايا القلب قد كشفوا عن بعض الخطرات ووصفوا بعض المشاعر، ولكن هذا شيء والتعرف على حقيقة الروح شيء آخر.

فالروح عالم علوي أو ماورائي يغيب عن العقل في ذاته ويستحيل على الإنسان أن يتصل به وإن كان في وسع الفكر أن يسلم بوجوده. هذا التسليم هو أقصى ما يتاح للعقل أن يحققه ويحيط به.

من هنا يتأكد لنا أن الوحي السماوي قد أراد أن يجنبنا الخوض فيما ليس من شأننا أن نبحثه لأن البحث فيه لا ضرورة له. فقد وهبنا من المدارك ما يصلح به شأننا ونبلغ به مرحلة الإيمان والتسليم بوجود خالق بارىء محيط بكل شيء، وبوجود عوالم مغيبة عنا تدخل معرفتنا بها حيز الإيمان وحسب وتصدر حقائقها إليها من خلال الوحي الذي خص بها من اصطفاهم الله من عباده.

والجدير بالذكر أن بعض المشركين الرافضين لدعوة الإسلام طالبوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يأتيهم "بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا" كآية على صدق دعوته، ولما كان الاتصال المباشر بعالم الملائكة أمراً متعذراً بسبب التعارض التام بين طبيعة الإنسان وطبيعة الملاك فقد كان من الضرورة بمكان أن يكون جواب السماء نابعاً من طبيعة هذا التعارض وبالتالي مؤكداً لتعذر الحصول على أي نتيجة صالحة لتحقيق الغرض من هذا الطلب.

المشركون من ناحية يستنكرون أن يكون رسول السماء إنساناً من الناس... والله عز وجل يقول لهؤلاء المشركين بما معناه: لو كان في الأرض ملائكة يمشون كما يمشي الناس ويتصفون بما يتصف به البشر لأرسلنا إليهم من السماء ملكاً رسولاً... ويترتب على هذا الجواب الحقيقة التالية: لما كان الإنسان عاجزاً عن رؤية الملائكة ما لم يكونوا على صورة ناس يسعون في الأرض ويمشون في الأسواق فإنّ إرسال ملك رسول من السماء لن يضيف جديداً لأنه سيكون على صورة بشر عادي"[1].

والحقيقة أنّ الباعث العميق في نفوس المشركين على المكابرة والمعاندة هو العمى في البصيرة والصمم في الأذن والبكم في اللسان، فالمشرك لا يريد أن يفتح قلبه وأذنه وعينيه لاستقبال نسمات المعرفة ونداء الإيمان

1 . نجد هذا المعنى في قوله عز وجل "قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (الإسراء:95)

ونور اليقين، فهو يتخبط في بحر لجي يجتاحه موج من فوقه موج، ظلمات بعضها فوق بعض. إنّ مشكلته الكبرى هي في إصراره على أن يستوعب بعقله المحدود تفصيلات لا تضيف جديداً إلى المعرفة المطلوبة منه.

وقد عبر القرآن عن هذا المعنى معلناً في الوقت نفسه أن القضية في جوهرها هي قضية الهداية المترتبة على البصيرة الواعية وهي نعمة من نعم الله عز وجل ونفحة من نفحاته العلوية... فمن أوتي هذه النعمة واستقبل النفحة السماوية فقد فاز... ومن لم يؤت النعمة ولم يستقبل النفحة فقد ضل ضلالاً بعيداً. والله وحده هو الشهيد على ما يكون بين المشركين وبين رسوله الصادق الأمين. يقول الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء: "قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97)"

هكذا تتحدد الأبعاد الحقيقية لملكة التفكير عند الإنسان. ويتبين لكل ذي عينين وقلب متفتح أنّ للنشاط الفكري دوره الكبير في تحقيق جانب خطير من جوانب المعرفة التي هي جزء ضروري من بنية الإنسان الحضارية ووسيلة هامة لاكتشاف حقيقة الخلق. لكنّ هذا النشاط الفكري لا يستقيم أمره ولا يبلغ الغرض المطلوب منه ما لم يستضئ بنور البصيرة الواعية التي تحتفظ بفاعليتها المبدعة ما دامت الصلة قائمة وثيقة بين فكر الإنسان وفطرته التي فطر عليها.

ومما يدل على أهمية هذه الصلة وخطرها الكبير في الكشف عن عقيدة الوحدانية واستيعاب حقيقة الخلق أنّ المئات بل الألوف من المفكرين الذين فقدوا نور البصيرة قد اضطربت أسباب التفكير عندهم واختلطت قواعده في سيل المناقشات والمجادلات التي سجلت لهم في كتب محفوظة، فإذا بهم في متاهات واسعة غامضة الأبعاد يضرب بعضهم بعضا وينفي بعضهم بعضاً فيما يطرحونه من الآراء ويصفونه من الحلول.

أما التقنيات والقواعد التي وضعت لتنظيم التفكير الإنساني فإنها لا تقدم أي عون حقيقي دون الاستعانة بنور البصيرة وبالتالي دون أن تنعقد الصلة وثيقة بين ملكة التفكير والفطرة التي جاء الدين على صورتها وفرضت الفرائض وجاءت الأوامر والنواهي كإجراءات إلهية تهدف إلى توكيد طابع هذه الفطرة والحفاظ عليها. ومن هنا جاء قوله عز وجل: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم:30)"

على أنّ اتصال ملكة التفكير بالفطرة لا يعني أنّ في وسع هذه الملكة أن تستوعب كل موضوع بطريقة مباشرة. فهناك عوالم لا تخضع لسلطان هذه الملكة ولا سبيل إلى استيعاب تفصيلاتها بالوسائل المعرفية المتوفرة لملكة التفكير الإنساني. ولذلك فإنّ التعرف إلى هذه العوالم والاتصال بحقائقها التفصيلية مشروطان بمصدر آخر من مصادر المعرفة التي قررها كتاب الله عز وجل. إنّ هذا المصدر هو عالم الغيب. والله سبحانه هو وحده الذي يحدد لعباده نصيبهم من هذه المعرفة في حدود ما يطيقون من ناحية وفي حدود ما يحتاجون إليه من ناحية أخرى.

ولما كانت ملكة التفكير قناة موصلة إلى العقيدة وأداة ضرورية لا غنى عنها للتعامل مع أنواع المخلوقات كلها فمن الطبيعي أن يكون اللجوء إليها أمراً لا يعفي المؤمن من القيام به والنهوض لمسؤولياته. إنّ الاستعانة بملكة التفكير تقف على قدم المساواة مع المطلب الخاص بتطهير القلب وتصفية النفس بالتوجه الدائم إلى الله عز وجل والتعبد له. فالتقوى رافد أساسي يصب في محيط المعرفة بالله وبأعماق النفس البشرية كما أن ملكة التفكير العقلي رافد آخر يصب في محيط المعرفة بالله وبمظاهر المخلوقات كلها في حدود ما خلقت له وللأغراض التي وضعت لها.

"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ" إنّ التقوى مصدر من مصادر العلم بقطاع معين من المعلومات... وإنّ التفكير العقلي مصدر آخر من مصادر العلم بقطاع آخر معين من المعلومات... وأحدهما مكمّل للآخر لا يستغني عنه. فإذا انقطع ما بينهما من الصلات فقد ضل أصحابها ضلالاً بعيداً.

وهذا يعني أنّ أحدهما لا يغني عن صاحبه ولا يحقق لنفسه الغرض المطلوب منه. وهذه حقيقة تقررها فرضية ملزمة هي وحدة الخلق وتكامل أجزائه. وأصالة الإنسان مشروطة بتحقيق النشاط الخاص بكل ملكة من ملكاته التي لم تخلق عبثا ولم يقصد بالواحدة منها أن تكون بديلاً عن صاحباتها. إنّ التوازن والتكامل في فطرة الإنسان هما الظاهرتان اللتان تستوعبان حقيقتها كلها. ولذلك يتأكد الانحراف والقصور عند من يصر على الاستعانة بملكة واحدة دون سواها... ومن أجل ذلك قصر الفلاسفة العقليون في استيعاب المعرفة السليمة الموزونة ,كما أفسد المتصوفة علاقتهم بهذه المعرفة وقصروا في التعامل مع دنيا الواقع حين التزموا بقطع علاقتهم الدنيوية وتوجهوا بكليتهم إلى ما وراء الحياة والأحياء وأشياء الكون والطبيعة.

إنّ الحقيقة الكبرى التي يلح كتاب الله على إبرازها بجملة الآيات والسور هي حقيقة التوازن والتكامل في كل ميدان وعلى كل مستوى من المستويات...

فالخلق ليس حقيقة سكونية ثابتة بل هو حقيقة جدلية تتميز بالحركية والتكامل والتوازن ومع ذلك فهي خاضعة لسنن وقوانين ثابتة تتم بها وحدة الخلق وتنوعه في الوقت نفسه. وتنوع ملكات المعرفة عند الإنسان وتعيين حجم كل منها وتحديد المدى الذي يجب أن تقف عنده هي أيضاً صفة من صفات الأصالة في التركيب الإنساني وظاهرة مفردة تكشف عن جوهر الخلق الذي لا يتيسر الإطلاع عليه بالسهولة الموفورة في عالم الإنسان بخاصة.

يبقى أن نتساءل: هل أنّ التقوى التي يقصد بها تطهير الذات وتصفية النفس بالتوجه إلى الله عز وجل بالعبادة الشاملة كما شرحناها من قبل، وأنّ النشاط الفكري الذي يقصد به استيعاب العلاقات القائمة بين

الخالق والمخلوق وبين المخلوقات بعضها مع بعض في حدود مرسومة لا يمكن تجاوزها، هل أنّ هذا النشاط الفكري وتلك التقوى هما القناتان الوحيدتان المتوفرتان للإنسان في عالم المعرفة؟ أم هناك قنوات أخرى تعتبر أساسية في ميدان المعرفة؟

الثابت أنّ القرآن الكريم قد تحدث عن قنوات أخرى غيرهاتين القناتين وبتعبير آخر أكثر تحديداً عن قناتين أخريين، قناة التفكير العلمي التطبيقي الذي يتعامل مع الأجزاء التفصيلية للكون والطبيعة، ثم قناة المعارف القادمة من عالم الغيب وسنتحدث في الفصلين القادمين إن شاء الله عن هاتين القناتين مستعينين بما جاء في كتاب الله من الآيات البينات.

الفصل الرابع

ما فرطنا في الكتاب من شيء

القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنّه تنزيل من خالق بارىء عارف بأسرار خلقه. أنعم به على الإنسان لا باعتباره جديداً في جوهره بل باعتباره الصوت الخاتم لأصوات سماوية سابقة تصدّر بها إلى إعداد الأجيال البشرية إعداداً يمكنها من أن تستوعب أبعاد هذا الصوت السماوي الأخير.

ولا عجب في أن تكون للقرآن هذه الصفة فقد جاء في جوهره مصدقاً لما بين يديه من الكتب السماوية توكيداً لوحدة الحق، كما جاء مهيمناً عليها مستوفياً لكل الأبعاد السلوكية والتشريعية والتنظيمية بحيث لا تحتاج الأجيال اللاحقة من بعده لمزيد من المعارف أو إضافات من المبادىء التي يحتاج البشر إليها تنظيماً لحياتهم في الدنيا وفوزاً مبيناً في الحياة الآخرة.

*****

والقرآن وإن جاء يحمل كلمة الحق مبسوطة واضحة الأبعاد لكنه في الوقت نفسه استبقى للإنسان فرصا كثيرة يمتحن بها عقله، ويبتلي بها وعيه، وتتحقق بها ذاته، وتتمايز بها جماعاته تمايزا يستبين بها من حيّ عن بينة ومن هلك عن بينة أيضاً. إنه الرحمة المهداة إلى الناس كافة، والهداية التي تتحدد بشواهدها معالم الطريق إلى النجاح.

جاء هذا الكتاب السماوي ليعلّم الناس أسرار إعمار النفوس والأرض... والنجاح في هذا الإعمار هو وحده الذي يعمق لأصحابه النجاح والفوز المبين يوم لا تغني شفاعة الشافعين الا من ارتضى الله من رسول، ويوم لا تزر وازرة وزر أخرى.

*****

أما الجوهر الثابت الذي جاء القرآن ينادي به تصديقا لما جاءت به الكتب السماوية السابقة فهو عقيدة الوحدانية التي غرست في نفوس الناس منذ خرج أبوهم آدم خليفة في الأرض، على صورة فطرة فطروا عليها، ورسالة خالدة نابعة من طبيعة تكوينهم. وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة في قوله عز من قائل: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ" (الأعراف:172). فعقيدة الوحدانية فطرة فطر الناس عليها وخلقوا ليلتزموا لها ويقرّوا في ضوئها بربوبية الخالق عز وجل ثم يقرّوا بعبوديتهم له.

وليس أدلّ على ذلك من أنّ الانتماء الديني ظاهرة إنسانية رافقت الأجيال البشرية كلياً. فليس من جيل في تاريخ البشر إلا ووجد في فطرته حافزاً إلى التدين وإن اختلفت الأشكال التي تجسد ويتجسد بها هذا التدين وتباينت في أساليب التعبير عنه. فالناس قد يضلون الطريق التي يصورون فيها تدينهم وقد يهتدون ولكنهم متفقون جميعهم على أن الدين هو الأساس الذي يبنون فوقه عماراتهم الثقافية. والجوهر الثابت في القرآن جاء ليدل الناس إلى وحي النظرة التي غرست فيها عقيدة الوحدانية.

*****

وإذا كانت الحياة الدنيا هي التي تتحدد بها الأبعاد العملية والسلوكية لوحدانية العقيدة، فمن الطبيعي أن يطرح القرآن الكريم الحدود والشروط والأساليب التي يتم بها التجاوب بين الحياة الدينوية وبين عقيدة الوحدانية. ومن الطبيعي أيضاً أن يطرح فن التعامل، وأسرار التوافق بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان وغيره من الناس ثم بينه وبين المخلوقات كلها.

وإذا كان الله عز وجل قد قال في محكم تنزيله: "ما فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ" (الأنعام:38) فقد قصد بذلك إلى القول: بأنّ ما ورد في القرآن كاف لاستيعاب الحق والوقوف عنده والالتزام بتعاليمه. وأنّ من يعمل في ضوء هذا القرآن قادر على استخدام ملكاته العقلية، وقدراته النفسية بحيث لا يعود في حاجة لغير هذا الحق الذي أوحى به عوناً له على الفوز بدنياه وآخرته.

*****

وهنا نتساءل ما هي الشروط والحدود والأساليب التي يتعين بها وجه الحق في الحياة الدنيوية بعد التسليم بعقيدة الوحدانية؟ الواقع أنها تناولت المبادىء العامة للأنشطة العقلية والنفسية، واستوعبت أساليب التعامل، والمبادىء الأساسية للسلوك البشري كما عيّنت أنواع العلاقات، وأطرافاً من الآداب، وفنوناً من التشريعات. وفيما يلي نقدم نماذج مختارة تساعدنا على استيعاب الخطوط الرئيسية والأساسية لبناء الإنسان ولإعمار الأرض التي جعلت له مستقراً ومقاماً.

1) **امتياز بني آدم من دون كثير من المخلوقات:** لقد قضت حكمة الله عز وجل أن يكون الإنسان خليفة في الأرض وأن يتمتع بقدرات ونعم لا يتمتع بها غيره من المخلوقات حتى عالم الملائكة. فقال عز من قائل: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء:70) وقد ترتب على هذا التكريم أن تكون السماوات والأرض وما بينهما مسخرة لخدمة بنى آدم. والعقل والإرادة هما الملكتان اللتان يتحقق التسخير بهما. فالإنسان بإرادته يفعل ما يشاء والإنسان بعقله يقتحم المجاهيل من حوله ويستخدم ما سيكتشفه منها لمصلحته الخاصة بغض النظر عن الدين الذي يدين به والأخلاق التي يتخلق بها. إنّ تكريم بنى آدم في هذا المعنى هو نداء موجه إليه ودعوة صريحة للتصرف بعقلية وإرادة تصنع بهما حياته ويفيد بهما من نعم الله في السماء وفي الأرض.

2) **حرية بني آدم في اختيار الطريق الذي يرتضونه لأنفسهم:** فليس لأحد من الناس أن يسيطر على سواه بحيث يفرض عليه العقيدة التي يريد، والدين الذي يختاره لنفسه، ذلك أنّ الحرية في الاختيار هي شرط العقيدة الصحيحة. ويؤكد هذا المعنى قوله عز وجل "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَاۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (البقرة:256)

لقد ولد الناس أحراراً متساوين. أحراراً في اختيار العقيدة، ومتساوين في الحصول على حقهم في العدل والأمن والعمل والكفاية، والحرية مسؤولية. والله وحده هو الذي يحاسب الإنسان على حريته كيف استخدمها.

ومعنى أن تكون الحرية مسؤولية أنها أمانة الله مودعة عند خلقه من الأدميين. والأمانة هذه ثقيلة جداً. لأنّ طريقة التعامل بها هي التي تقرر مصير المؤتمن عليها.

3) **الحوار وهو وحده العلاقة المشروعة بين الناس:** وقد ضرب الله المثل بنفسه في الوحي الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم، كان في وسعه عز وجل وهو الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له "كن فيكون" أن يهلك من أساء استخدام حريته، ولم يلتزم لشروط الأمانة التي أؤتمن عليها. ولكنه عز وجل لم يفعل. فقد جعل من قرآنه مادة حوار... فهو حوار مع محمد صلى الله عليه وسلم. رفضه لمحاورات عقدها مع السابقين من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم. ورواية لمحاورات مثلها ومناقشات مع المستجيبين لدعوة السماء والرافضين لها. أما وأنّ الله عز وجل خلال نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قد قضى أن يكون الحوار وسيلة اتصال وحيدة بينه وبين عباده وبين عباده بعضهم والبعض الآخر، فإنه عز وجل قد أعطى الناس مع الرسالة الخاتمة درساً خالداً علّمهم به فن التعامل بعضهم مع بعض. وحرم عليهم توسل القوة، أي نوع من أنواعها، لإقناع الناس بما لا يريدون أن يقتنعوا به. وقد يتصف الحوار ببعض الشدة في القول ولكنه لا يتجاوز سلاح الكلمة أبداً. ولو أننا تلونا الآيات الأولى من سورة البقرة التي يصف بها الوحي السماوي حقيقة الكفار والمنافقين لتأكدنا من أنّ ما ورد في هذه

الآيات لا يعدو أن يكون وصفا لأخلاق هؤلاء وأولئك. قال عز من قائل: " إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)".

4) الحوار مشروط بقول الحقيقة:

أوليس الغرض من الحوار كسب أكبر عدد من الأنصار بأي ثمن وبأي أسلوب، بل الغرض الأساسي منه هو قول الحقيقة، فالحقيقة وحدها هي التي تهيىء أسباب النجاة، وقول الحقيقة يعنى تجاهل كل الاعتبارات والمصالح الشخصية والعلاقات المنعقدة مع الناس وما يترتب عليها من ضغوط مادية، إذا كانت هذه المصالح وتلك الاعتبارات متعارضة مع قول الحقيقة. إنّ الالتزام لتعاليم القرآن الكريم وتوجيهاته يأتي مقدماً على كل علاقة قائمة حتى ولو كانت علاقة رحم وصلة أبوة أو بنوة ورباط صداقة أو زواج. وقد عبر القرآن الكريم عن أهمية الالتزام للحقيقة التي نزل بها وحي السماء وضرورة مراقبته حين أعلن بأنّ شرط القرب من الله ورسوله هو أن يكون الله ورسوله أحب إلى المؤمن من كل أشياء الدنيا والصلات المادية والأدبية التي تنعقد في ضوئها، فقال عز من قائل: " قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" (التوبة:24). فعندما يكون حب المؤمن لله ورسوله مقدّماً على كل حب آخر فهو بالضرورة مع الحقيقة يعلنها ويقف إلى جانبها في غير تردد إذا تكلم فهو الناطق بإسمها، وإذا وعى الشهادة فهو لا يشهد إلا تأييداً لها ومساندة لأصحابها.

ويترتب على قول الحقيقة أن يكون المؤمن صادقاً مع نفسه، وصادقاً مع الناس من حوله. فلا يخون عهداً قطعه ولا يتجاهل خطة وافق عليها أو طرحها من ذات نفسه حتى ولو كان هذا الصدق مصدر بلاء عليه وعلى

أقرب الناس إليه. مصداق ذلك في النداء الذي وجهه وحي السماء إلى المؤمنين في قوله عز من قائل: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" (النساء:135).

والصدق لا يعني الخشونة في القول ولا الوقاحة في المواجهة. بل هو مشروط بالكلمة الطيبة والصبر الجميل والقول اللين والالتزام بمكارم الأخلاق.

5-الأخلاق الكريمة أولاً ثم العلم: - ولو أنّنا تدبرنا كتاب الله وحاولنا أن نخرج من هذا التدبر بقانون أساسي من القوانين التي تتحدد بها شخصية المؤمن لتبين لنا أنّ أعظم ما يتميز به ابن آدم في توجيهات هذا الكتاب السماوي هو الخلق الكريم. والرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو النموذج الكامل لشخصية المؤمن في مفهوم القرآن. ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لم يتميز بما حققه لنفسه من مكاسب المعرفة وأنواع العلوم بل تميز بالأخلاق الكريمة والصبر الجميل. كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب. والعلم الذي حصل عليه جاءه وحياً من السماء لا فضل له في التوصل إليه، فهو لم يقرأ كتاباً من كتب الأولين، ولم يشارك في تقرير قضية من قضايا الفكر ولم يسهم في طرح نظرية من نظريات المعرفة. كل علمه جاءه من رسول السماء جاهزاً مكتمل المعالم واضح الأبعاد. وكانت مهمته مقتصرة على إبلاغ ما علمه إلى الناس كافة. فهو به رسول بالمعنى الحرفي للكلمة. أما الميزة التي رفعته مكاناً عالياً فهي في أخلاقه الحميدة. وهذا هو القرآن الكريم يمتدح أخلاقه الطيبة هذه في الوقت الذي يمنّ عليه فيه بالعلم الذي جاءه من لدى السماء. فقال عز من قائل: "وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم:4) وتقديم الامتياز بالأخلاق الحميدة ليس وقفاً على محمد صلى الله عليه وسلم بل هو الامتياز المطلوب لكل إنسان من الناس لا سيما وأنه عز وجل قد أكد في كتابه المنزل قلة حصيلة الإنسان من العلم. وليست الدعوات السماوية غير الآية والعلاقة على توكيد حاجة هذا الإنسان إلى علم ما لا يعلم وما لا سبيل له إلى العلم به إلا بوحي من الله عز وجل. هذه الحقيقة عبر عنها وحي السماء بمناسبة الحديث عن حقيقة الروح فقد قال عز من قائل:

"وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الإسراء:85). هذا القول السماوي يسحب على كل إنسان حتى إنسان اليوم أو الغد، هذا الإنسان الذي قد يخيل له غروره أنه قد حقق من المكاسب العلمية ما هو يدفعه إلى الظن بأنّ في وسعه معرفة كل شيء بمجرد الاعتماد على ملكات العقلية وتحصيله العلمي. وإلى جانب هذا الموقف القرآني نجد في بعض الآيات تمجيداً غير محدود لأخلاق الإيمان والصفات النفسية الطيبة لعباد الرحمن كما في قوله عز وجل في سورة الرحمن: "وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (67)"..

الأخلاق القوية الصالحة تدفع صاحبها فيما تدفعه إلى تحصيل العلم. لكن تحصيل العلم لا يدفع بالضرورة إلى الالتزام لهذه الأخلاق. وخلاصة ما نتعلمه من كتاب الله أنّ الأخلاق الصالحة جديرة بتكوين الأمم القوية وتزويدها بأسباب النصر والغلبة. فما نهضت أمة في التاريخ إلا بقوة الأخلاق وما هانت وضعفت بعد ذلك إلا بضعف الأخلاق وهوانها على نفسها وعلى غيرها من الناس حتى لو كثر عدد العلماء فيها.

6 –**<u>الخصوصية القرآنية في فن التفكير</u>**:

التفكير المنتج في مفهوم القرآن هو الذي يحقق النجاح في التعرف إلى قوانين الخلق وأساليب التعامل مع أشياء السماوات والأرض وما بينهما. وفي القرآن توجيهات صريحة تتصل بميدان المعارف الممكنة التي فطر الإنسان على تحصيلها. فإذا حاول أن يجاوز ما وراء ذلك واجه العجز والفشل. ولهذا جاءت الدعوة السماوية إلى الإيمان بالله ورسله وملائكته واليوم الآخر والقضاء خيره وشره. وهذه عقائد لا يفوز الإنسان بها ولا يحصل عليها إلا بفضل المعلومات التي جاءته من عالم الغيب. ومن الممكن أن نضيف إلى هذه المعلومات المغيبة كليات تشريعية وآداباً اجتماعية تنتظم بها الحياة الدنيوية هي أيضاً مما جاء به الغيب السماوي. أما ما وراء ذلك فهو شأن إنساني فالسير في الأرض والنظر في قوانين المخلوقات داخل في التفكير المنتج. يبدو ذلك في قوله عز وجل: "قُلْ

سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (العنكبوت:20).. والسير في التاريخ والنظر في عواقب الأمم السابقة داخل أيضاً في التفكير المنتج، يبدو ذلك في قوله عز من قائل: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" (الأنعام:11).

الجزء الأول من التفكير المنتج هو الذي يمكن صاحبه من الإفادة من نعم الله في الأرض وفي حدود الممكن. والجزء الثاني من التفكير المنتج هو الذي يساعد صاحبه على الاتعاظ والاعتبار يتعلم بهما كيف يتجنّب المهالك ويختار طريق الهداية والسلامة.

الفصل الخامس

السياسة الإعلامية في القرآن بين التاريخ والمعاصرة

يحسن بنا قبل كلّ شيء أن نذكر بأنّ القرآن الكريم كتاب سماوي يتفرد بطريقته في عرض الوقائع وتقرير الأحداث وتبيين أحكام الله وتوسل أسلوب معين في التعليم والتوجيه والوعظ.

فهو ليس كتاباً في التاريخ... وان كان فيه من التاريخ مادة شديدة الخصوبة... وهو ليس كتاباً في الاجتماع أو الاقتصاد أو النفس أو التربية على الصورة التي نعرفها لهذه العلوم وغيرها وإن كانت فيه مادة غزيرة يمكن أن نستبين من خلالها وجهة النظر القرآنية في الكثير من القضايا المطروحة.

لكنّ الثابت أنّ القرآن كتاب إعلامي... نزل بالحق لتحقيق غرض معين هو الدعوة إلى الله وتثبيت عقيدة الوحدانية ووضع التشريعات التي تنتظم بها شؤون الدنيا والآخرة متوسلاً في ذلك جملة من الوسائل: منها الحوار المنطقي... والقصة... والموعظة الحسنة... ومناقشة المواقف والقضايا التي تعرض للناس.

ولما كان الإعلام علماً يحتاج إلى ثقافة عامة متنوعة يستوعب بها كل اهتمامات الإنسان بقدر معلوم فإنّ في وسعنا القول بأنّ القرآن قد جمع بين دفتيه الأطراف المطلوبة لهذه الثقافة المتنوعة.

***

والجدير بالذكر أنّ الأصول الأساسية في الإعلام بعامة وفي الإعلام القرآني بخاصة هي خمسة أصول.

1) المرسل

2) المرسل إليه

3) المضمون

4) إدارة الإرسال

5) الغرض من الإرسال

هذه الأصول الخمسة التي يعتبرها الإعلاميون اليوم أساسية في كل عمل إعلامي تفرض علينا أن نتبين ما إذا كانت متوفرة في كتاب الله الذي لا يزال محفوظاً لنا دون تغيير أو تبديل.

أما المرسل فهو الله عز وجل من خلال شخص الرسول الذي يبعثه إلى قومه بشيراً ونذيراً أو إلى الناس كافة.

وأما المرسل إليه فهو الإنسان العاقل المخير الذي تبلغه رسالة الرسول.

وأما المضمون فهو الدعوة إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، مع ما يرافق هذه الدعوه من أنواع البيان والفصل في شؤون الإنسان الدنيوية تنظيماً وتشريعاً ووعظاً وإرشاداً، والمقصود به أن يكون وسيلة هداية وتعليم للدنيا والآخرة. أما أداة الإرسال فهي الكلمة والنصيحة التي تتعانق مع الواقع الحي والتي تلتزم بالصدق وتستند إلى الخلفية الثقافية المرتبطة بفطرة الإنسان السليم.

يبقى أن نذكر بأنّ الغرض من الإرسال هو ما أشرنا إليه في فقرة المضمون أعلاه.

السياسة الإعلامية

ومما يلفت النظر أنّ في القرآن عرضاً لمختلف الأساليب التي لجأ إليها الوحي السماوي في تعليم البشر وتوجيههم وتأديبهم، ومن الممكن القول بأنّ مجموعة هذه الأساليب هي الخلاصة الشاملة للسياسة الإعلامية لكتاب الله.

إنّ التأمل فيها يطرح أمام القارىء شريطاً يقص قصة الدعوة السماوية إلى البشر... هذه القصة التي تميزت فصولها ووقائعها بألوان وأحداث ومواقف تختلف باختلاف المستويات الحضارية للأجيال المتعاقبة.

إنّ إضافة هذه المواقف والأحداث والألوان يساعدنا على أن نتعرف بدقة إلى المراحل المختلفة التي مر بها الإعلام السماوي. ففيها الحكمة والموعظة الحسنة... وفيها الإنذار الشديد... وفيها المعجزة القارعة التي أهلكت المعاندين أو المعجزة التي تثير الدهشة والعجب والروع عند الكافرين والتسليم عند المؤمنين، كما أنّ فيه الحوار المنطقي المنظم ولفت الأنظار إلى العجائب في خلق السماوات والأرض.. إلخ.

إنّ جملة هذه المعاني هي التي تعين أبعاد السياسة الإعلامية في كتاب الله باعتبارها جزءاً من تاريخ الدعوة إلى الله من ناحية وباعتبارها الخطة الصالحة لإعلام قائم مستمر حتى يوم يبعثون.

***

في ضوء هذا التمهيد نستطيع أن نسرد قصة الإعلام القرآني عبر الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولاسيما الذين عرّفنا الوحي ببعض أعمالهم وقص علينا الأساليب التي اتبعوها في التعامل مع أقوامهم حتى يوم الإسلام الذي جاء فيه النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم.

فنحن مع القرآن الكريم أمام رؤية إعلامية كاملة ومستوفاة لكل شروط الإعلام في صورته التاريخية والمعاصرة. وفيما يلي محاولة هذه السياسة الإعلامية كما قصها الوحي السماوي علينا مرفقة بتعليقاتنا الخاصة.

الإعجاز المادي ومنطق العقل

الثابت أنّ الوسائل التعليمية الإلهية قد اعتمدت أول ما اعتمدت من طرائق الهداية عملية المزج بين المعجزة المادية التي تصدم من يشاهدها وتثير وعيه وتحفزه إلى التساؤل عما وراء هذه المعجزة من الحضور الإلهي وعظمة الخلق الرباني وبين الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولو حاولنا الدقة في المراقبة لوجدنا أنّ دور المعجزة المادية في تقريع المعارضين لرسالة النبوة والكافرين بوجود الله أكبر كثيراً من دور المنطق العقلي وسياسة الإرشاد التعليمي. بل أنّ المعجزة المادية تبلغ من العنف والشدة في

بعض الأوقات مبلغاً يتم به استئصال مدينة بكاملها أو عشيرة بكل أفرادها غير القلة القليلة من المؤمنين بهذه الرسالة.

***

وتأتي قصة الفلك التي أمر الله سبحانه وتعالى نبيه نوحا عليه السلام ببنائها نموذجاً فريداً لعملية الصدمة المادية الرهيبة. أوليس أنّ الطوفان الذي اجتاح جمهور الكافرين والمشركين بعد الانتهاء من بناء الفلك هو المعجزة المادية التي اجتاحت الأشياء والناس وغمرت كل سهل وواد وجبل في الوقت الذي حملت فيه مياه الطوفان هذا الفلك الذي بناه نوح عليه السلام بكل ما فيه؟ لنقرأ القصة في القرآن الكريم فنستبين من ثم هذا الدور الخاص الذي قامت به المعجزة المادية تقريعاً وتأديباً واستئصالاً لمجتمع المشركين والكافرين.

***

وقبل أن نقرأ هذه القصة يجدر بنا أن نمر سريعاً بالمقدّمات التي سبقت أحداثها وهي مقدمات طويلة يحدثنا فيها الله سبحانه وتعالى على لسانه تارة وعلى لسان نبيه نوح تارة أخرى حديث الجهود التي بذلها النبي عليه لإسلام لإقناع قومه ولتعليمهم حقيقة الكون وما ورائه.

إنّ في سورة نوح عرضاً رائعاً لمقدمات معجزة الطوفان في كل آية وكأنها لوحة كاملة لجانب من الجهود التي بذلت من أجل هداية هؤلاء البشر.

1) أنذر نوح قومه وطالبهم بعبادة الله.

2) أنبأهم أن الله يغفر لهم ذنوبهم إن أقلعوا عن المكابرة والمعارضة.

3) عاد نوح إلى ربه يناجيه ويعلن له عن طبيعة جهوده وأنه قد دعا قومه ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعاءه إلا فراراً.

4) وتمضي الآيات الكريمة تصف الحوار الذي كان يجري بين نوح وقومه حتى إذا يئس النبي عليه السلام منهم جاء بالدعاء قائلاً: "وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)" (سورة نوح)

ثم يسارع النبي على طريقة الاستدراك مستثنياً عدداً من المؤمنين بادئاً بنفسه يطلب المغفرة له ولهم جميعاً فيقول في الآية الأخيرة من السورة: "رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)".

***

وهنا يأتي أمر الله ببناء الفلك. وتمضي الآيات الكريمة تصف حواراً من نوع آخر بين النبي والمشركين من قومه فيه سخرية منهم وتحدٍّ لا يقف أبداً. حتى إذا جاء الوقت المعين أمطرت السماء وجاست الأرض بالماء وطغى الطوفان على كلّ شيء وكلّ إنسان غير الذين حملهم الفلك من الحيوان والناس المؤمنين بالله.

قال تعالى وقد قضت إرادته أن تنزل العقوبة القارعة بالساخرين المشركين في سورة هود الآيات 36 حتى 44، "وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ

مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)".

هكذا كانت نهاية الشرك والمشركين. ويمثل هذه المأساة الرهيبة القارعة ختم فصل من فصول الصراع بين الخير والشر. بين إرادة التعليم والهداية وبين إرادة التجهيل والغواية. ولئن كان حظ الناس من الطوفان القارع أكبر من حظهم من التنور المضيء للقلوب فلأنّ سنة الله في خلقه قضت أن تكون المعجزات المادية الخارقة مدخلاً إلى عصور بشرية لاحقة تتزايد فيها احتمالات الاتعاظ والاعتبار.

ونحن هنا لا نحاول أن نمضي مع الأسباب الخفية والعميقة التي قضت أن تكون إرادة الله على هذه الصورة وأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الناس كلهم من طراز الملائكة "لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" بل نقتصر على الملاحظة وتقرير الوقائع وحسب.

***

والملاحظ في جملة الآيات القرآنية الكريمة التي تقص علينا مراحل حياة النبي نوح عليه السلام وهي حياة طويلة جداً، كانت رحلة الدعوة إلى الله منها خمسين وتسعمائة عام. إنّ الملاحظ أنّ فيها الأمر الصارم والدعوة الخالية من المحاكمات العقلية الطويلة وإن كانت في معانيها مثقفة مع الفطرة الخالصة وللفطرة منطقها البسيط الحازم الذي يتجنب المناقشات المطولة.

***

المهم أنّ الإعجاز المادي في نبوة نوح عليه السلام هو إعجاز التأديب والعقوبة أكثر منه إعجاز تعليم وتدريب وهداية. إنّ الذين أفادوا من هذه المعجزة وأتيح لهم أن يتعلموا منها هم القلة من المؤمنين وبعض أهل بيت النبي. أما الكثرة الساحقة فلم يكن الأمر بالنسبة إليها كذلك. لقد لقي الجميع حتوفهم فذهبت مأساتهم مثلاً في تاريخ العصيان والشرك.

مزيد من الإعجاز التعليمي

وتمضي الأيام ليظهر بعد دهر من القرون والسنين نبي كريم آخر هو في تاريخ النبوات ومن خلال التعليم القرآني نفسه أبو الأنبياء الذين جاؤوا من بعده وتعاقبوا واحداً وراءِ آخر يحملون مشعل الدعوة إلى الله. هذا النبي الكريم هو سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام.

والواقع أنّ لأبي الأنبياء مع شعبه قصة تتصل من ناحية بقصة نوح عليه السلام ومن ناحية أخرى تعتبر تجاوزاً لها في تفصيلات الطريقة والمنهج.

الكشف الذاتي أولاً

كانت البداية بالنسبة لإبراهيم الخليل عليه السلام كما تكون بداية كل إنسان سليم الفطرة خالص النفس.

الفصل السادس

بين المعرفة والسلوك في الإسلام...

في تاريخ التراث الفكري لجملة من أمم العالم القديم والحديث عبارات اتخذت صفة الشعارات التي لا تجادل ولا تناقش، أو الحكمة التي استقبلتها الأجيال وتستقبلها حتى اليوم على أساس أنها حقائق مسلمة.

من أبرز تلك العبارات المحفوظة ما ينسب إلى سقراط الفيلسوف اليوناني والذي جاء فيه قوله: "اعرف نفسك" ومنها ما تقرر في فلسفته من أنّ الفضيلة هي المعرفة، وأنّ الرذيلة هي حصيلة الجهل وحسب.

ويبدو أنّ الأجيال المتعاقبة قد استقبلت هذا النموذج من العبارات على أنه حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ومضت أرتال البشر تتصرف في ضوء هذه العبارات حتى كادت الشهادة التي تدل إلى حصول حاملها على مجموعة من المعارف والمعلومات أن تكون في الوقت نفسه شهادة على جملة من الصفات الخلقية الرفيعة.

ولعل السبب في ذلك أنّ الموازين المنطقية التي هي خصوصية العقل البشري هي وحدها التي تميز الإنسان الصالح من الإنسان الطالح. فالمسيرة العلمية بهذا المعنى هي التي تحدد قيمة السيرة الخلقية التي توازيها في اعتقاد هؤلاء الناس.

***

وهنا نتساءل: ما هو موقف الإسلام من العلاقة القائمة بين العلم والأخلاق؟ هل صحيح أنّ مجرد الحصول على المعرفة في نظر الإسلام يعنى بصورة حتمية التمسك بالقدر نفسه من مكارم الأخلاق؟

والواقع أنّ القرآن الكريم قد أجاب عن هذا التساؤل بطريقته الخاصة. وقد ظهرت هذه الطريقة على الصور التالية:

1) إنّ الوحي السماوي لم يستخدم كلمة (عقل) أبداً بل استخدم كلمة (قلب) وأعطى هذه الكلمة الأخيرة معاني وحدّد لها أبعاداً أوسع من تلك المعروفة لكلمة "عقل".

فالعقل في التاريخ هو ملكة المعرفة وحسب بينما القلب في القرآن الكريم هو ملكة تجمع إلى صفة المعرفة صفات أخرى لا تنفك عنها أبداً. فالقلب في القرآن هو ملكة التفكير وهو موضع الإرادة وهو مادة المسؤولية كما أنه موضع الوجدان وبالتالي الضمير الإنساني. هكذا يكون لفظ "القلب" قد استوعب خصوصية لفظ العقل، وأضاف إليها خصوصيات تتصل بميدان السلوك والأخلاق. وهذا يعنى أنّ الوحي السماوي يريد أن يقرر وحدة الشخصية الإنسانية ويعلن أنّ القلب هو الذي يرمز إليها ويجسد كل خصائصها المختلفة.

ولما كانت استقامة السلوك مرتبطة بالإرادة والوجدان الرفيع والضمير الحي، وكانت هي التي تحدد موضع المسؤولية فمن الطبيعي أنّ استخدام لفظ القلب بالمعنى الذي ورد في كتاب الله أصلح وأصح تعبيراً عن وحدة الشخصية وربط مفاهيم الإرادة والوجدان والضمير والإحساس بالمسؤولية من المعنى الذي يفهم من كلمة "عقل".

2) أنّ الوحي السماوي يقرر بأنّ عالم المعرفة عند الإنسان محدود بحدود معينة لا يستطيع أن يتجاوزها. فهناك أكوان ومخلوقات معينة لا سبيل إلى استيعابها عن طريق العلم الإنساني الذي يستند إلى الحواس والتجارب وجمع الملاحظات والموازين المنطقية وحسب.

وقد تقرر هذا المعنى في قوله عز وجل: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (الإسراء:85)". أما الأخلاق في مفهوم الوحي فهي أوسع مدى وأرحب ساحة لا تحدّها حدود ولا تنتظمها قيود كما هو شأن المعرفة البشرية. وعندما أراد الوحي السماوي أن يعرفنا بعظمة المصطفى عليه السلام قال موجهاً حديثه إليه: "وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ"، فامتيازه صلى الله عليه وسلم لم يكن بفضل ما توصل إليه من المعارف بل بفضل ما اتصف به من عظيم الخلال وسمو الأخلاق وقوة الإرادة وغيرها من خصائص السلوك

الإنساني الرفيع. أما المعارف التي حملها إلى الناس فهي وحي من السماء جاء رحمة وهدى للناس من رب العالمين.

3) ولما كانت المعرفة التي يكتسبها العقل لا تعني النمو الحتمي لإرادة الخير والإحساس بالمسؤولية وظهور الاستقامة والتطهير النفسي، فإنّ المربين قد ميزوا العلم من التربية وحاولوا على طريقتهم أن يجعلوا الثانية موصولة بالأولى استكمالاً للجانب التطبيقي من المعرفة.

أما المشرع والمربي الإسلامي فقد اعتبر الاستقامة جزءاً لا يتجزأ من المعرفة. وحرصاً منه على اعتبارها حقيقة واحدة فقد اختار كلمة قلب لتكون تعبيراً عن ملكة التفكير والملكات السلوكية في وقت معاً.

وليس أدلّ على أهمية الفرق بين مفهوم العقل ومفهوم القلب في الوحي السماوي من أنّ التاريخ البشري قد سجل في حوليات أصحاب العقول رغم اكتسابهم للمعارف والعلوم جرائم وانحرافات لم تستطع هذه العلوم وتلك المعارف وحدها الحيلولة دون التورط فيها.

وهذا لا يعني بالطبع أنّ كل إعداد فكري بالضرورة يكون عارياً من السلوك الكريم بل يعنى ضرورة أن يفهم الإنسان بأنّ جوهر النهضة في الأمة هو وحدة الفكر والسلوك الحسن، أو وحدة العقل والفضائل النفسية كلها، على أساس أنّ هذه وتلك تمثل الشخصية الواحدة. فكان لفظ "القلب" هو ما يعبر عن وحدة الشخصية البشرية.

4) ولو كانت المعرفة التي يكتسبها العقل باجتهاده المستقل كافية لواجهة مسؤوليات التقدّم الحضاري والوعي البشري لما كانت هناك حاجة إلى رسالات سماوية ولا إلى ملاحم يخوضها رسل السماء ضد الجهالة والكفر والانحراف الخلقي. إنّ محمداً صلى الله عليه وسلم الذي جاء برسالة للعالمين، والذي امتاز عن البشر كلّهم بالدور العظيم الذي قام به، ما كان يدري "مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ" لولا الوحي الذي نزل عليه. فهو إنسان عظيم خالد في نفوس المؤمنين بشخصيته التي جسدت المعارف التي جاءته من السماء في حياته العملية أي بصفاته

الخلقية في الأساس. فالرسالة السماوية هي النور الذي زرع اليقين في قلبه، وأخلاقه هي التي جعلت من هذا النور حقيقة معاشة في كل يوم بحيث أصبح قدوة للناس الذين آمنوا برسالته.

****

في ضوء ما سبق حرص الإسلام على اعتبار المعرفة والسلوك حقيقة واحدة في ملكة واحدة رمز القلب إليها. وهذه النظرة هي إبداع يستقل به الإسلام من دون كل المناهج المعرفية في تاريخ الأمم التي أصرت على توسل وسائلها الخاصة بعيداً عن الوحي السماوي في إعداد أجيالها المتعاقبة.

إنّ الكلمة معرفة وخلق في وقت معاً. وهي بالتالي فكر ومسؤولية ثم فكر ويقظة في الوجدان ثم فكر وإرادة، وهذا هو المعنى الذي قصد إليه المصطفى صلى الله عليه وسلم حين أجاب عن سؤال وجه إليه قائلاً: "قل آمنت بالله، ثم استقم". فالإيمان معرفة ولكنّ الاستقامة شرط لها. والربط بينهما لا يتحقق إلا بالإعلان عن وحدة المعرفة والسلوك. والسلوك النظيف أكثر خطراً من المعرفة، لأنّ المعرفة محدودة بينما عالم السلوك غير محدود.

****

والجدير بالذكر أنّ البشرية التي خطت حتى اليوم خطوات واسعة نسبياً في عالم المعرفة، وفي كل ميدان من الميادين المادية، لا تزال عاجزة جداً عن حل المشكلات العارضة والمآسي الرهيبة التي تقصف بعالم اليوم وتنزل به الظلم والتحيز والعدوان، ذلك لأنها أصرت على الفصل بين المعرفة والسلوك. ولو أنها في حياتها العملية قد جعلت من السلوك النظيف شيئاً أرفع من المعرفة أو موازياً لها على الأقل لتجنّبت ما تتعرض له من ظلم الظالمين وخزي المظلومين.

الفصل السابع

منهج المعرفة التطبيقية في القرآن

التمييز بين فكر العالِم المتخصّص في قطاع محدّد من قطاعات المعرفة العلمية وبين فكر الفيلسوف النظري ليس بالأمر اليسير. فالفكر الإنساني في جانبيه النظري والتطبيقي وحدة متكاملة. ولعلّ الأصح أن نقول: إنّ الفكر النظري منه والتطبيقي لا يقوم وحده بالمسؤوليات المعرفية الموكولة إلى الإنسان.

فهناك إلى جانبه مصادر المعرفة المباشرة التي سبق أن تحدثنا عنها وذكرنا أنّ التقوى هي التعبير الدقيق عن السلوك الذي يرافقها والذي يعني في حقيقته تطهيراً للذات وتصفية للنفس ومحاولة قاصدة إلى اكتشاف العالم الباطني للإنسان. كما أشرنا إلى مصدر رابع للمعرفة يتصل بعالم الغيب ووعدنا بتخصيص فصل مستقل لدراسته والتعرف إلى الغرض منه.

ومع ذلك فإنّ التفكير العلمي التطبيقي ذو خصائص ومقوات يتميز بها من سواه على نحو من الأنحاء. لكن تميزه هذا لا يتعارض مع الوحدة المعرفية المتكاملة والمتوازنة التي تضمه إلى القطاعات المعرفية الأخرى.

في وسعنا أن نعين شروط التفكير العلمي كما يحدده العلماء المعاصرون بما يلي:

1 – "إنه ليس تفكير العلماء بالضرورة. فالعالم يفكر في مشكلة متخصصة، هي في أغلب الأحيان منتمية إلى ميدان لا يستطيع غير المتخصص أن يخوضه، بل قد لا يعرف في بعض الحالات أنه موجود أصلاً. وهو أي العالم المتخصص، يستخدم في تفكيره وفي التعبير عنه لغة متخصصة يستطيع أن يتداولها مع غيره من العلماء، هي لغة اصطلاحات ورموز متعارف عليه بينهم، وإن تكن مختلفة كل الاختلاف عن تلك اللغة التي يستخدمها الناس في حديثهم ومعاملاتهم المألوفة.

2 – وإذاً فالتفكير العلمي بمعناه الواسع لا ينصب على مشكلة متخصصة بعينها ولا يفترض معرفة بلغة علمية أو رموز رياضية خاصة. بل هو ذلك النوع من التفكير المنظم الذي يمكن أن نستخدمه في شؤون حياتنا اليومية.

3 – والمقصود بالتفكير العلمي المنظم هو التقيد بمجموعة من القواعد والمبادىء الأساسية من مثل وجود الشيء ونقيضه في الوقت نفسه، والإيمان بالسببية التي ينتفي بها وجود معلول دون علة، والقول بأنّ شيئاً لا يمكن أن يصدر عن لا شيء.

4 – إنّ مسيرة التفكير العلمي هي مسيرة تراكمية. بمعنى أن الحقائق والوقائع المكتشفة تنضم الآن إلى حقائق ووقائع سبق اكتشافها من قبل. فاللاحق منها لا ينقض السابق ولكنه يكمله.

5 – إنّ التفكير العلمي لا يتحقق بصورة تلقائية عفوية بل يستند إلى تخطيط وتنظيم دقيقين. وعلى ذلك فالتفكير العلمي لا يتعاقب في مراحله حراً من كل قيد. فإذا تحرر من القيود أصبح مجرد خطرات أو تعبيراً عن وقائع منفصلة بعضها عن بعض ويبدو من ثم خليطاً يفتقد التكامل والشخصية المحددة.

6 – والتفكير العلمي المنظم ينعكس بدوره على حياتنا الخارجية أي على كل ما نتعامل معه من أشياء الطبيعة والكون. فهو سمة ظاهرة في السلوك والمعاملات اليومية، كما هو سمة ظاهرة في الإنجازات المادية التي نحققها في الخارج.

7 – ولكي يكون التنظيم وسيلة صالحة للتفكير العلمي لا بد وأن يستند إلى القوانين والسنن التي تخضع لها أشياء الكون والطبيعة والحياة. فهناك قوانين ملزمة في كل علم من العلوم ولكل معرفة من المعارف.

8 – أما اعتماد القوانين الملزمة فإنه يتمّ بعد اجتياز عدد من المراحل الضرورية من مثل:

الملاحظة الحسية المباشرة أو غير المباشرة. أما الملاحظة الحسية المباشرة فهي تمثل المرحلة الأولية التي ظهرت مع بداية البحث العلمي الحديث. وأما الملاحظة الحسية غير المباشرة فهي التي ظهرت في خطوات متدرجة بظهور

الأجهزة العلمية الدقيقة القادرة على تسجيل عدد من الوقائع أكبر وأدق كثيراً من الوقائع التي كانت تسجلها الحواس البشرية من مثل السمع والبصر واللمس والشم والذوق. والواقع أنّ كل الإنجازات العلمية العصرية تقريباً لم تتحقق إلا بفضل الأجهزة المساعدة التي تقرب البعيد وتظهر الخفي أو تعين الآثار المترتبة على الوقائع الخفية والبعيدة.

9 – وتأتي بعد الملاحظة الحسية المباشرة وغير المباشرة مرحلة التجريب. وتقضي هذه المرحلة بإخضاع واقعة معينة لظروف يمكن التحكم بها مع تنويع هذه الظروف ما أمكن ذلك.

10- فإذا تمت مرحلة التجريب استطاع المفكر العالم صاحب التجربة أن يعين القوانين الضابطة لجزئيات هذه التجربة. ومن ثم يخرج بنظرية نابعة من جملة هذه القوانين. ويقول الدكتور فؤاد زكريا في ص 33 من كتابه "التفكير العلمي" وهكذا فإنّ نيوتن قد استعان بكلّ القوانين التي تم كشفها عن طريق تجارب جاليليو وباسكال وهيجينز وغيرهم من العلماء السابقين عليه لكي يضمها كلها في نظرية عامة هي نظرية الجاذبية.

11- فإذا صحت هذه النظرية بعد إجراء مزيد من التجارب وجب استخلاص ما يترتب عليها من نتائج بطريقة "الاستنباط العقلي" والمثل على ذلك كما يقول الدكتور زكريا في المرجع نفسه: "إنّ آينشتين عندما وضع نظرية النسبية بناء على ملاحظات وتجارب جزئية سابقة قام بها هو وغيره من العلماء، استخلص النتائج المترتبة عليها بطريقة الاستنباط العقلي. وكان لا يترك تجربة لكي يثبت أنّ هذه النتائج تتحقق في الواقع. وبالفعل أجريت هذه التجربة في حالة الكسوف الشمسي الذي حدث في عام 1916، وأثبت صحة النظرية التي اتخذ منها انيشتين مقدمة لاستنتاجاته (210).

12- والعلماء يقولون بعد ذلك: إنّ معرفة القواعد السابقة لا تكفي لتكوين رجل علم حقيقي. فرجل العلم الحقيقي يحتاج إيضاً إلى قدر كبير من المعارف وإلى ذكاء حاد هو الموهبة التي لا تتوفر بالقدر نفسه لكل دارس من الدارسين.

13- ثم يتحدث العلماء عن الشرط العلمي للنشاط العقلي الصحيح. وخلاصة هذا الشرط تقضي بالتعرف إلى الأسباب والعلل القائمة وراء كل ظاهرة أو حقيقة علمية.

ومن الطبيعي أنّ المفهوم من السبب في ميدان البحث العلمي مختلف عن المفهوم الذي جاء به أرسطو مثلاً والذي تميز به منهجه الفكري. فقد أورد أرسطو أربعة أنواع من الأسباب:

1 – السبب المادي كأن نقول أنّ الحديد الذي تصنع منه السيارة هو سبب لهذه السيارة.

2 – السبب الصوري كأن نقول أنّ الشكل الذي أعطي للسيارة هو سبب آخر لها.

3 – السبب الفاعل كأن نقول أنّ فعل الصانع للسيارة هو سبب ثالث لها.

4 – السبب الغائي كأن نقول أنّ الغاية من صنع السيارة هي سبب رابع لها.

أما المفهوم السببي الذي يعتمده العلم المعاصر فهو السبب الفاعل وحسب باعتبار أنّ الأسباب الثلاثة الأخرى وهي المادية والصورية والغائية ليست أسباباً حقيقية لأنّ الفعل لا يصدر عنها. فالحديد لا يصبح سيارة إلا بفعل الصانع... وهيئة السيارة لا تتحقق إلا بفعل الصانع. والغاية من السيارة لا تظهر إلا بعد فعل الصانع.

14- ويؤكد العلماء بأنّ من شروط التفكير العلمي الإتصاف بالشمولية واليقين. أما الشمولية فهي تعني سريان النظرية العلمية على كل الظاهرات التي أخضعت أو يمكن أن تخضع للتجربة، بغض النظر عن الإنسان الذي يقوم بالتجربة ويلاحظ تفصيلاتها المختلفة. وأما اليقين فهو صفة لازمة للشمول إذ لا شمول في الحقيقة العلمية ما لم تكن هذه الحقيقة صحيحة سليمة لا ثغرة فيها.

15- وأخيراً يقرر العلماء أنّ العبارات ذات المفهومات الغامضة أو الفضفاضة لا تؤدي الغرض منها. فإذا كانت الملاحظة العلمية يقينية وجب أن يكون اللفظ المعبر عنها يقيناً دقيقاً، وإذا كانت احتمالية وجب بالتالي أن يؤدي اللفظ المعنى الاحتمالي. ولما كانت الرياضيات برموزها أدق وسيلة للتعبير عن الحقيقة العلمية فقد اعتمدت

هذه الرموز في التعبير عنها. ولما كانت الرياضيات علماً تجريدياً أي لا يتحدث عن أشياء معينة بل يدل إلى مجرد علاقات بين حدود معينة فقد وجب أن تكون الحقيقة العلمية ذات طابع تجريدي أكان التعبير عنها بواسطة الرموز الرياضية أو بأشكال أخرى وأنواع مختلفة من الرموز والرسوم.

***

حتى هنا نكون قد حصرنا السمات الأساسية للتفكير العلمي. والحقيقة أن المنطق السليم لا يرفض هذا النوع من المعرفة. بل يعتبره حقيقة مسلمة ويجد فيه الوسيلة الوحيدة التي يمكن للمفكر العالم أن يتأكد من صحة النتائج التي يبلغها بمنهجه الفكري ووسائله التجريبية المعروفة.

وقد أثبتت هذه المعرفة العلمية بالوقائع المتحققة والإنجازات الشاهدة فعاليتها وقدرتها على صنع جانب هام جدا من منجزات الحضارة البشرية.

إنّ التكنولوجيا التي هي ثمرة هذا التفكير العلمي تقف اليوم بمثابة البرهان الدافع على فعالية التفكير العلمي التطبيقي. ولما كان التفكير العلمي التطبيقي هو حصيلة التفكير العلمي النظري، وبتعبير آخر لما كانت هناك علاقة جدلية بين النظر والتطبيق في الميدان العلمي فقد وجب أن يفوز الفكر العلمي النظري بمثل الثقة التي يفوز بها الفكر التطبيقي.

لكنّ القضية التي يطرحها الفكر العلمي، والمنهج الذي ينظمه ويمنحه فعاليته وقدرته على العطاء ليست في الاعتراف بدقة هذا العلم وشموله وبالشروط التي أوردناها من قبل، لكنها في تعيين وتحديد الجواب عن السؤال التالي:

- هل أنّ التفكير العلمي، النظري منه والتطبيقي، بالشروط والخصائص التي وضعت له قادر على أن يجيب عن كل الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الإنسان بين يديه؟

وبعبارة أخرى، هل يمكن أن نعتبر الإنجازات العلمية، النظرية منها والتطبيقية مصدراً وحيداً للإجابة عن كل الأسئلة التي يمكن أن يطرحها الإنسان بين يديها؟

لننظر فيما يقوله بعض المفكرين المحدثين والمهتمين بتنمية الفكر العلمي:

1 – أما فرنسيس بيكون وهو أبرز اوائل الفلاسفة العلميين فقد اعتبر المعرفة الحقيقية هي المعرفة النابعة من التعامل مع الواقع الذي تتصل به الحواس والذي يمكن أن يوضع في ظل ظروف يجري التحكم بها.

وقد أراد بيكون بذلك أن يضع حداً للمعارف العقلية النظرية البحتة التي كانت تلتزم لقوانين المنطق الصوري،كما أراد أن يضع حداً لنفوذ المعارف التي كانت تتبناها الكنيسة الرسمية. هكذا تصبح المعرفة العلمية عند بيكون هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الإنسانية.

2 –أما أوغست كومت، فيلسوف المنهج الوضعي، فهو واضع قانون الأحوال الثلاثة الذي يقرر به بأنّ المعرفة قد اجتازت ثلاث مراحل: المرحلة اللاهوتية ثم المرحلة الميتافيزيقية ثم المرحلة العلمية التي انتقلت بها المعرفة من محراب الكنيسة إلى المختبرات العلمية. وقد حاول أن يخضع المباحث الاجتماعية لمناهج البحث العلمي.

3 – فإذا انتقلنا إلى الفيلسوف الألماني جورج فيلهيلم فريدريك هيجل الذي عاش بين عام 1770 وعام 1831 بدأت أبعاد المعرفة تتلبد بالغيوم وتضطرب فيها الصورة على نحو يختلط فيها العقل بالطبيعة فيكون هو إياها. ويعلن هيجل أنّ نمو الفكر يكون بمقدار ما يستوعب من حقائق الطبيعة فلا تعود الطبيعة المدركة غير صورة فكرية. ولما كان التاريخ عند هيجل هو الذي "يحطم آخر الروابط التي تقيد الروح بالطبيعة كما يتميز تاريخ العالم عنده بخلق الدول وهدمها مرة بعد أخرى" فهو يمثل العملية التي يتحرر بها الفكر نهائياً ويقطع كلّ صلاته الأخيرة بالطبيعة ويلفظ كلّ ما يمكن أن يحتوي عليه من عرضية ولامعقولية، كما يرتفع بعد ذلك إلى امتلاك ذاته امتلاكاً كاملاً في صورة كلية خالصة في مجال الروح المطلق أي في الفن والدين والفلسفة[1].

1 . انظر ص 102 من كتاب "هيجيل" بقلم عبد الفتاح الديدي. منشورات دار المعارف بمصر – سلسلة نوابغ الفكر الغربي.

وبعبارة أخرى يقرر هيجل أنّ الفكر هو الأساس وهو الحقيقة الكبرى. والتاريخ هو الذي يتمثل فيه هذا الفكر فيصنعه على صورته. ولما كان الفكر في جوهره هو الروح المطلق المتمثل في الفن والدين والفلسفة فإنّ من الطبيعي أن يكون الحقيقة الأولى والاخيرة. وهو وحده الذي يحقق الحرية للإنسان. ولا ينسى هيجل التأكيد على أنّ الدولة في النهاية هي التي ترمز إلى هذا الروح المطلق وتجسده.

ويستوعب التحرك التاريخي كله عند هيجل منطقه الجدلي الذي يقرر بأنّ مسيرة الوقائع تنحصر في ثلاث مفهومات... الموضوع ثم نقيض الموضوع ثم مركب الموضوع. فالموضوع يقابله نفي له ثم يتألف من هذه الثنائية موضوع مركب جديد... ثم تعود الدورة مرة أخرى وثانية دون نهاية وكل ذلك يبدأ بالفكر، الذي هو النشاط العقلي، وينتهي إلى الفكر.

والجدير بالذكر أنّ فلسفة هيجل في الوجود والمعرفة قد ظهرت للجميع على اختلاف اجتهاداتهم وتعارض آرائهم مادة صالحة لهم. فنجد في كتاب الدكتور عبد الفتاح الديدي قوله: "ونعود الآن إلى فلسفة هيجل فنغير قولنا بأنها تعرضت أكثر ما تعرضت لشروح وتفسيرات الفلاسفة المختلفي الأهواء والمشارب والنزعات. وكانت في كل حالة بين الحالات مصدر إرضاء لكل المشتغلين بها. فمن الباحثين من استغله لمساندة أفكاره الرجعية ووجد فيه أكبر مؤيد لنظرية الشعب المختار لدى الألمان كالذي وجده فيه الفيلسوف المدافع عن مجد الدولة البروسية بشموخها وسيطرتها ونظامها الملكي الاستبدادي. ومن الباحثين من وجد في فلسفته أكبر تأييد منطقي للمسيحية في أعم معتقداتها وعباداتها. ومن الباحثين من عد فلسفته فلسفة حروب ورجعية وجمود عقلي وتعاظم نيتشاوي[1]. ومن الباحثين من رآها أصلح ايديولوجية استعمارية ومنهم من نظر إليها كمنبع لا ينضب لكل أنواع الفكر التقدمي وكأهم خطوة تحققت في مبدأ الطريق الثوري الانقلابي. وهيجل عند بعضهم اصل النظرية المعرفية والعلم الاجتماعي والفكر الناهض المستنير[2].

1 . نسبة لنيتشة أحد فلاسفة الألمان الذين ينادون ببناء الإنسان المتفوق.
2 . انظر ص 116من كتاب "هيجل" للدكتور عبد الفتاح الديدي منشورات دار المعارف بمصر.

هذه التفسيرات المختلفة او المتعارضة كلها تزعم أنها أدركت جوهر الفلسفة عند هيجل. وكما أنّ الغموض قد شاع في فهم الفلسفة الهيجلية، فإنّ الغموض قد ظهر أيضاً في نظرية المعرفة عنده.

لكنّ الثابت أن منطقه الجدلي الذي يكشف عن حركية المعرفة وظاهرة السلب فيها هو الذي يميزه من الفلاسفة السابقين. وخلاصة هذه المعرفة أن الفكر والطبيعة يستوعب أحدهما الآخر ويتفاعلان على نحو تتحقق به وحدة الروح المطلق الذي يتم التعبير عنه في الفن والدين والفلسفة.

هذا المنطق الجدلي هو الذي استعان به كارل ماركس من بعده وبدلاً من أن يجد فيه تجسيداً لجدلية الفكر والطبيعة في أوسع معانيها بما فيها المجتمع والإنسان فإنّ كارل ماركس وجد فيه تجسيدا لجدلية الصراع الطبقي.

فالتاريخ عند هيجل هو مسرح لجدلية الفكر والطبيعة... أما التاريخ عند ماركس فهو مسرح لجدلية الطبقة والطبقة. وعلى كل حال يبقى هيجل وماركس أسيرين لرأي أساسي هو أنّ المعرفة نابعة من الظاهرة الجدلية وهي في نهايتها تجسيد لأبعاد الواقع المادي وإن اختلفت العناوين عند كل منهما.

فهيجل وإن قرر في النهاية وجود الروح المطلق فقد جسد هذا الروح المطلق في الدولة عبر الفن والدين والفلسفة... كما أنّ ماركس قد جسده في الصراع الاجتماعي التاريخي متمثلاً في تناقض الطبقات، حقيقة المعرفة وأبعادها.

4 – أما عمانوئيل كانط فقد وجد حين بدأ يفكر ويتأمل أنّ الفلاسفة من قبله قد افترقوا فرقتين أساسيتين: فرقة العقليين الذين يقولون بأنّ المعرفة "تحصل بواسطة العقل المحض وبه وحده يحصل العلم بالأشياء، أما بواسطة الادراك الحسي فمستحيل أن يحصل ذلك[1]".

ثم فرقة التجريبيين الذين "ينكرون تحصيل المعرفة بالعقل المحض[2] ".

1 . انظر ص 265 من كتاب "قصة الفلسفة الحديثة" أحمد أمين – الدكتور زكي نجيب محمود – لجنة التأليف والترجمة والنشر.
2 . انظر ص 266 من المرجع السابق.

أما كانط فقد طرح سؤالاً قال فيه: هل أنّ المعرفة ممكنة في الأساس؟ وإذا كانت ممكنة فما هي حدودها؟ ويجيب كانط على هذا السؤال بتناول العقل المحض والعقل العملي.

أما العقل المحض والخالص فقد ناقشه ونقده في كتاب مستقل بعنوان "نقد العقل النظري" وذكر فيه ما خلاصته: هل الأحكام الإنشائية السابقة للتجربة في مقدور العقل وإمكانه؟ وإذا كانت كذلك فما وسيلة إمكانها؟

ويتفرع عن هذا السؤال أنّ الرياضيات كلها تتألف من هذه الأحكام الإنشائية، وكذلك العلم الطبيعي الذي لا يبني عن طريق الحواس فإنّ فيه قضايا أنشأها العقل الخالص، ثم هناك قضايا فوق متناول الحس من مثل قولك: "إنّ الروح خالدة" وهذا حكم إنشائي.

وبعد أن نقد كلاً من رأي لوك الذي يربط المعرفة بالحواس، وليبنتز الذي يربط المعرفة بالعقل يقرر أنّ للمعرفة الإنسانية أساسين مختلفين لا غنى لأحدهما عن الآخر.

أ – **الحس**: وبه نكتسب الإدراكات الحسية باستقبالنا للأحاسيس.

ب – **الفكر**: وبه نكوّن المدركات العقلية بواسطة اختيارنا مما يأتي إلينا من الإحساسات فنختار ما يلائمنا وما نحتاج إليه.

وفيما يلي نورد ما جاء في كتاب قصة الفلسفة الحديثة في هذا المعنى قال: "فلا يمكن بأية حال أن تكون التجربة هي الميدان الوحيد الذي تنحصر عقولنا في حدوده، فالتجربة تدلّنا على ما هو واقع، ولكنها لا تدلّنا على أنّ هذا الواقع لا بد بالضرورة أن يكون هكذا ولا يكون على صورة أخرى وهي لذلك لا تمدنا قط بالحقائق العامة، مع أنّ هذا الضرب من المعرفة هو ما تنزع إليه عقولنا بصفة خاصة. فالتجربة توقظ العقل أكثر مما تقنعه، وما دام العقل في مكنته أن يصل إلى الحقائق العامة مع أنها ليست من التجربة، فهو إذن مصدر للعلم إلى جانب التجربة. ولعل أفصح مثال يدل على وصول العقل إلى المعرفة بغير طريق التجربة هو مثال الرياضة لأنها

يقينية، ويستحيل على التجربة أن تنقضها يوماً ما، فلقد يجوز لك أن تتصور الشمس مشرقة من الغرب في الغد، وأنّ النار قد تتبدل عليها الظروف فلا تعود قادرة على إحراق عصاك الخشبية، ولكنك لا تستطيع بحال من الأحوال أن تتصور أنّ العالم سيحدث فيه ما يجعل اثنين واثنين لا تساوي أربعة، فهذه الحقيقة الرياضية ثابتة إلى الأبد ومن الأزل، ولا تحتاج لكسبها إلى تجربة، لأنها حقيقة مطلقة لازمة الحدوث. والتجربة لا تمدنا إلا بإحساسات متفرقة، وأحداث مفكّكة، لا يطرد تتابعها، فقد تجيء في غد على غير النظام الذي جاءت به اليوم أو أمس. وإذن فهذه الحقائق الرياضية وأشباهها تستمد ضرورتها من تركيب عقولنا الفطري[1].

والجدير بالذكر أن عمانوئيل كانط قد تحدث من بعد عما سماه التحليل السامي أو العلوي والجدلية السامية أو العلوية. فيعلن أن المدركات الحسية لا تلبث أن تتحول إلى مدركات عقلية منظمة تتمثل في علم ومعرفة. ثم يسمو هذا العلم إلى مرتبة أعلى من النظام فيكون حكمة[2].

أما الجدلية السامية أو العلوية فيقرر كانط بعد القول بأنّ معارفنا النابعة من مدركاتنا الحسية والمتحولة إلى مدركات عقلية هي معارف تتصل بظاهر الاشياء لا بماهيتها وحقيقتها المستقلة عن إدراك الحواس، كما يقرر أن العلم عاجز عن استيعاب حقيقة الماهية او إدراك الأشياء في ذاتها.

وينتهي إلى القول بأنّ كلّ محاولة يبذلها العلم أو الدين للوصول إلى الحقيقة النهائية هي محاولة فاشلة لأنه لا يمكن للعقل أن يتعدّى الظواهر الحسية، فإن مضى العلم والدين في ذلك تورط في التناقض والخطأ. هكذا ينتهي كانط إلى نفي قدرة العقل والدين على البرهنة على صحة الحقائق الميتافيزيقية من مثل البرهنة على وجود علة أولى أو البرهنة على ابتداء الزمان أو المكان من نقطة معينة.

وقد لا يخلو من الفائدة أن نورد ما اقتطفه مؤلف "قصة الفلسفة الحديثة" من كتابات هيني الذي نقد نظرية كانط في المعرفة وعقد مقارنة بين آثارها التخريبية وبين آثار روبسبير، أحد الزعماء المتطرفين في عهد الثورة

---

1 . انظر المرجع السابق ص 273 – 274

2 . المرجع نفسه ص 288.

الفرنسية قال: "إنّ روبسبيير لم يقتل إلا ملكاً وبضعة آلاف من الفرنسيين — وهي جريمة قد يتسامح فيها الرجل الألماني — أما كانط فقد قوض الدعائم التي يرتكز عليها بناء "اللاهوت". إنه لشدّ ما يختلف مظهر هذا الرجل عن آرائه الهدامة التي زلزلت العالم! فلو كان أهل كونسبرج قد قدروا كلّ ما تستتبع أفكاره من خطر لارتاعوا لوجود هذا الرجل أكثر مما يروعهم سفاك لا يقتل إلا الكائنات البشرية، ولكنّ الناس كانوا من الطيبة بحيث لم يروا فيه إلا أستاذاً للفلسفة، إذا ما خرج في ساعته المحددة هزّوا له رؤوسهم يحيونه تحية الصداقة وأخذوا يضبطون ساعاتهم.[1].

ولا يقلل من أهمية هذه النظرية وخطرها أنّ كانط قد دار حول نفسه في كتابه الآخر "نقد العقل العملي" وقال فيه جواباً عن تساؤله: "إذا كان الدين لا يمكن أن يقوم على أساس من العلم والعقل فماذا عسى أن يكون الأساس الذي يبني عليه؟ فيقول "إنه يجب أن يرتكز على دعامة من الأخلاق، لأنك إن أقمت بناءه على عمد من اللاهوت العقلي عرضته كما قدّمنا — لأخطر الأخطار. فلنترك العقل هنا ولنشيّد الإيمان على ما هو فوق العقل، على الأخلاق.[2]

ثم يوضح دور الأخلاق فيقول: "ولكن يجب أن تكون قاعدة الدين الأخلاقية مستقلة بذاتها، غير مستمدة من التجربة الحسية المعرضة للشك، وألا يفسدها العقل ببحوثه وقضاياه، كما يجب أن تستمد القاعدة الأخلاقية من باطن النفس مباشرة، وإذن فلا بد أن تكون لدينا مبادىء أخلاقية فطرية تنشأ في الإنسان بطبيعته فيستلهمها ويستوحيها دون أن يلجأ في تحديد سلوكه إلى علم أو تجربة.[3].

حتى هنا نتوقف عن إيراد الشواهد من كتب الفلاسفة المحدثين. وقد اخترنا هؤلاء الأربعة على أساس أنّ فرنسيس بيكون قد تحدث عن المعرفة النابعة من الواقع والتجربة، وأنّ أوغست كونت لم يختلف عنه في الجوهر

1 . المرجع السابق ص 296.
2 . المرجع السابق ص 296.
3 . المرجع السابق ص 297.

والأساس وإن كان المنهج العلمي في المعرفة قد حقق في عصره تطوراً جاوز المرحلة التي بدأ منها هذا المنهج في عهد بيكون.

أما هيجل وكانط فقد اخترناهما لأنهما فيلسوفان عقليان لكنهما رغم ذلك لما يتجاوزا في الحقيقة والواقع ما يمكن أن يبلغه المنهج العلمي في المعرفة باستثناء أنهما توصلا إلى تحليل أدق كثيراً لظاهرة العقل وعلاقة العقل التنظيمية بالمدركات المحسوسة والقواعد والمقاييس التي فطر عليها للوعي بالحقائق العامة.

لكنّ الرجال الأربعة لم يخرجوا عن الإطار العام لمنهج المعرفة في حضارة الغرب الحديثة.

وإذا كان كانط قد اعترف بوجود فطرة مركوزة في الإنسان تنضبط بها الأنشطة العقلية عند الإنسان فقد بقي ملتزماً بالقوانين المنطقية حين رفض الاعتراف بقدرة العقل الفلسفي واللاهوت العقلي على حل مشكلة المكان والزمان وقرر عجزهما عن تصوّر بداية للأزل ووجود علة أولى لا تكون معلولة لما قبلها... كما قرر عجزهما عن تصور بداية المكان.

فالفطرة التي يتحدث عنها كانط هي غير الفطرة التي يتحدث عنها القرآن الكريم.

أما فطرة كانط فهي محصورة في بنية العقل وطبيعة نشاطه التركيبي والتحليلي وإدراكه الذاتي للحقائق العامة.

أما الفطرة التي تحدث عنها القرآن الكريم فهي ليست فطرة العقل وحسب بل هي الفطرة الشاملة لظاهرة الوعي الإنساني كله أكان هذا الوعي وعياً عقلياً منطقياً صورياً أو كان وعياً نابعاً من ملكة الاستشفاف الروحي... وهي أيضاً الفطرة التي تتمثل وحدة الإنسان في جسده وعقله وقلبه وروحه ونفسه. إنها تعبير عن وحدة الخلق التي تتألف من كثرة من العناصر والملكات المتوازنة والمتفاعلة. وهي نفسها التي تصل النشاط العقلي بالحضور الإلهي وتدفعه إلى الوعي بالدور الخالق الفعال والمريد والكامل للذات الإلهية كما تصله في الوقت نفسه بالملكات النفسية والإدراكية الأخرى وتعقد صلة وظيفية بينه وبين الوقائع المادية المحسوسة وتزوده بالقوانين الفطرية التي تساعده على بناء العلوم وتنظيم هذه الوقائع بالذات.

أما القاسم المشترك بين هؤلاء الفلاسفة الذين لعبوا دوراً قيادياً أساسياً، ولا يزالون في تعيين أبعاد المعرفة في عالم الحضارة الغربية، فهو أنهم مجمعون في نهاية المطاف على حصر المعرفة بالأنشطة العقلية التي هي حصيلة الاتصال والتفاعل بين العقل وبين العالم الخارجي.

وما يقال من أنّ كانط قد نادى بوجود الإيمان المبني على الأخلاق في مرتبة فوق العقل لا يعني خروج هذا الفيلسوف على الإطار العام في جوهر تفكيره. فالحقيقة أنّ تقريره بأنّ الأساس الديني يرتكز على الاخلاق هو بمثابة تناقض لجأ إليه ليتجنّب الحرج الذي تعرض له أمام السلطات الكنسية. فألّف كتابه "نقد العقل العملي" ليكون مخرجاً له من هذا الحرج. ولا نستبعد صحة ما يقال من أنّ السلطات الدينية قد ضغطت عليه وألزمته بالبحث عن هذا المخرج وقد فعل.

والفرق بين الإيمان المسيحي الذي يشيده فوق القاعدة الأخلاقية في فلسفته العملية وبين الإيمان بالوحدانية الذي جاء به القرآن الكريم هو أنّ الإيمان عند كانط يمثل موقفاً فلسفياً يفتقد التناسق مع فلسفته النظرية. فكلّ من الفلسفتين عنده تقوم على مقدّمات متعارضة مع مقدّمات الفلسفة الثانية بسبب من نظرية المعرفة الأساسية التي أقام عليها فلسفته النظرية. أما الإيمان بالوحدانية الذي جاء به القرآن الكريم فهو لا يقوم على مقدّمات معرفية متعارضة مع بقية المدركات. أي أنها لا تنقض المنهج العام للمعرفة في القرآن بل تثبته وتدعمه وتتناسق معه.

فمنهج المعرفة القرآنية لا يقوم على المعرفة المباشرة وحدها كما لا يستقل بالطريقة العقلية دون أن يضع حدوداً لكلّ منهما بحيث يبني من هاتين المعرفتين وغيرهما من المعارف بنية متكاملة متوازنة متعددة القنوات لكنها تصبّ كلها في محيط واحد تحدّد أبعاده وتعين شموله تلك الفطرة التي منتظم بها وجود الإنسان كلّه.

وطبيعي أننا لا نستطيع الوعي الشامل بهذه الفطرة حتى نستكمل البحث فيما بقى من القنوات وسنتبين فيما بعد أكثر فأكثر الدور الحقيقي للفطرة التي فطر الإنسان عليها.

أبعاد المعرفة الواقعية في القرآن:

إنّ الرؤية المعرفية الخاصة بالجانب الواقعي من التعليم القرآني ليست موجودة بتفصيلاتها في كتاب الله على الطريقة التي تعارف عليها العلماء والفلاسفة المعاصرون في عرض نظرياتهم. فللقرآن طريقته الخاصة في تقرير الحقائق وتعليم الناس كيف يفكرون، وكيف يتعامل بعضهم مع بعض، وكيف يتعاملون مع الحقائق العامة والوقائع المادية التي تشهدها الحواس وتتصل بها على نحو من الأنحاء.

صحيح أنّ القرآن الكريم قد علمنا أن كل ما في الوجود هو مخلوق من قبل الله عز وجل وأنه لا يحدث شيء إلا بإذنه... فهو الذي يوجد وهو الذي يعيد الوجود إلى العدم... كما أنه هو يرعى مسيرة كل شيء... فهو يمسك السماء أن تقع على الأرض... وهو الذي يعين مدارات الأفلاك... وهو الذي يحيي ويميت... يخلق الخلق بكلمة كن فيكون... ويعيد الخلق إلى العدم بكلمة واحدة أيضاً. لكنه في الوقت نفسه قد أخبرنا، وهو الصادق فيما يخبرنا به، أنّ الخلق كلّه خاضع لسنن وقوانين ثابتة لا تتغير... والسنن هذه لا تنطبق على تحركات الأفراد والجماعات في صعودها طريق التقدم وفي هبوطها طريق التخلف والانهيار فقط بل تنطبق أيضاً على العلاقات الثابتة بين الأشياء والأكوان.

وكلّ شيء يتم في الخلق بقدر معلوم ولغرض محدد... فالطبيعة لم تخلق عبثاً من العبث، وليست ثمرة المصادفات... كما ليس في خلقها هزل بل هي الجد كله. وبذلك تنتفي الصورة القديمة التي كان يتبناها اليونانيون بالنسبة للقدر الذي قرروا أنه قوة عمياء ساخرة تعبث بالموجودات كلّها بما فيها الإنسان والآلهة.

وهناك جوانب أخرى للصورة يجدر بنا استيفاء الإشارة إليها في نسق منتظم بحيث يأتي الحديث عنها في مكانه الطبيعي ولذلك فإننا نبدأ من البداية.

أول ما يلفت النظر في المباحث الخاصة بمناهج المعرفة أنّ هذه المناهج ترتبط برؤية فلسفية مسبقة وتكون هذه الرؤية منها بمثابة المجرى الذي يحدد اتجاهاتها ويعين خطوطها الرئيسية.

ولما كانت المعرفة العلمية الواقعية مشروطة بوجود نظام دقيق تنتظم به كل المخلوقات الخاضعة للحواس والتي يمكن أن توضع في ظروف يجري التحكم بها بسهولة، والتي من ثم تكون متميزة بالاستمرارية والتوصل إلى النتائج نفسها مع كلّ تجربة متجدّدة، أو مع كلّ ممارسة لأي أسلوب من أساليب الملاحظة والاستقرار، نقول: لما كانت المعرفة العلمية الواقعية كما وصفناها قبل صفحات قليلة وعينا خصائصها مشروطة بالشروط المذكورة أعلاه فقد وجب التسليم ببديهية لا تحتاج إلى أي مناقشة تفرض نفسها فرضاً على العقول والقلوب لأنها تنبع من الضرورة الفطرية... هذه البديهية هي الإيمان بوجود قوة خالقة ناظمة للكون تتولاه بالعناية والرعاية، والقوة هذه تتصف بالجد الذي لا يداخله عبث ولا هزل... وتتميز بالحكمة الفائقة والعلم اللانهائي وبكل الصفات التي تخرجها إلى الوعي على أنها المثل الأعلى في كلّ شيء ولكلّ شيء. وأنه لا مثيل لها في الخلق كله.

فالثقة بالمعلومات التي يحصل الباحث عليها لا تتوفر بحيث تبنى بها حضارة شريحة واسعة ممتدة من الزمان بل هي مشروطة بوجود هذه القوة الخالقة الناظمة.

وبذلك تسقط كلّ الآراء المنافية لحقيقة هذا الإيمان في خانة الأساطير والأوهام.

والواقع أنّ القرآن الكريم قد سلط الضوء على حقيقة الجد في خلق السماوات والأرض، وأعاذ الناس من أن يجدوا في عملية الخلق عبثاً ولهواً وسخرية.

يقول الله عز وجل في سورة الأنبياء: "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18)".

وفي سورة الدخان يقول تبارك وتعالى: "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (38) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (39)"

وفي ضوء هذه الجدية في الخلق والتأكيد على أن السماوات والأرض قد خلقت بالحق حمل القرآن الكريم على الناس الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وجعلوا من السخرية بكل شيء ديدنهم وطريقتهم. ذلك لأنّ الانتظام الدقيق المستمر لا يتحقق بعقلية اللهو واللعب والسخرية. يقول القرآن الكريم في الحملة على هذا النوع من الناس: "وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ" (الأنعام:70).

ويقول القرآن فى بعض صفة الكافرين: "الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ" (الأعراف:51).

وفي توكيد لصفة الجدية وإنكار لأخلاق اللهو واللعب والغرور بالدنيا يرد قوله عز وجل في سورة الذاريات: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57)" .

كما يرد قوله في استنكار أخلاق العبث بصيغة الاستفهام الإنكاري: "أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ" (المؤمنون:115).

ومن صفات الجدية انتفاء الفوضى وتأكيد النظام والدقة ثم الالتزام بقواعد ثابتة يخضع لها الخلق كله فلا يشذ عن ذلك أي مظهر من مظاهر الكون والطبيعة والحياة.

إنّ الله عز وجل إذ يهيمن على الخلق كله قد ألزم نفسه بإخضاع كل هذا الخلق لسنة لا تتبدل ولا تتغير. ويقول تبارك وتعالى في هذا المعنى: "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (الفتح:23).

والسنة الثابتة هذه قائمة في كلّ شيء وفي كلّ تحرك... هي حقيقة قائمة في حركة الأكوان والأشياء المادية... كما أنها حقيقة قائمة في صنع مصائر الأفراد والشعوب.

أمّا أنها سنة ثابتة في حركة الأكوان والأشياء المادية فقد عبر القرآن عنها في قوله تبارك وتعالى: "وَسَخَّر الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إلى أجَل مُسَمًّى" (لقمان:29). "وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" (يس:38). "لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" (يس:40).

وما يصحّ على الشمس والقمر هو صحيح بالنسبة لغيرهما بحيث لا يقع المرء على أي ثغرة في بنية السماء والأرض وفي نظام الخلق بينهما: "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4)" (سورة الملك).

وأما أنها سنة ثابتة في صنع مصائر الأفراد والشعوب فقد ذكرها القرآن غير مرة وفي أكثر من مناسبة وأخضعها كلها للمقدمات نفسها: فالانحراف والفساد لا ينتجان غير الفشل والسقوط... والعناد والمكابرة عند بعض الجماعات ظاهرة لا يستقل بها عصر دون عصر ومجتمع دون مجتمع. لننظر ماذا يقول القرآن الكريم في هذين المعنيين وفي معان أخرى غيرهما.

يتحدث الله عز وجل عن الذين امتنعوا عن الإيمان تعنتاً ومكابرة فيقول: "وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا" (الكهف:55).

وفيما ينتظر الذين يستفزون محمداً صلى الله عليه وسلم من أرض وطنه بالتضييق عليه واضطهاده يقول عز من قائل في سورة الإسراء: " وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77)".

وإذاً فهي سنة الله، وقد خلت من قبل، هي التي يتعيّن بها مصير الممتنعين عن الإيمان مكابرة وتعنتاً، كما أنها سنّته هي التي تقرر مصير من يستفزون محمداً صلى الله عليه وسلم من الأرض بالتضييق عليه واضطهاده فلا يصيبهم غير البوار والهلاك من بعده.

وهناك سنة أخرى تتصل بمسيرة الأمم والشعوب وتعاقبها جيلاً بعد جيل أو قرناً بعد قرن أو أكثر أو أقل هي التي عبر عنها القرآن في قوله تبارك وتعالى: "إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (آل عمران:140)".

فالآلام في الحروب والمكاره ليست وقفاً على فريق دون فريق. إنها قدر مكتوب على المتقاتلين جميعاً، فلا غرابة في أن يتعرّض المؤمنون للقتل والجروح... لكنّ القاعدة في مثل هذه اللقاءات بين الأطراف المتقاتلة هي ما سبق في علم الله من قانون المداولة بين الجماعات والشعوب والأمم، فيبيد من نخر الفساد جلودهم وعظامهم وداخل الشر نفوسهم وقلوبهم، ويسود من استضاءوا بنور الإيمان وصلح أمرهم. وبغض النظر عن الثمن الذي يدفعه كل فريق فإنّ السنة المقررة التي لا تخيب في مقدماتها ونتائجها هي أنّ الباطل زهوق داثر وأنّ الحق منتصر متفوق حين يحسن الدفاع عنه من قبل أصحابه.

ولتأكيد هذه السنة التي يتقرر بها مصير الأفراد والجماعات في مسيرات التاريخ البشري يلفت القرآن نظر محمد صلى الله عليه وسلم ومن حوله ومن سيأتي بعده إلى حقيقة مهمة هي أنّ قوة الشعوب وكثرتها وسبقها في أعمار الأرض لا تغني عنها شيئاً إذا انحرفت وسمحت للفساد بالانتشار في ربوعها وسكتت عن الجنوح والجريمة. يقول الله عز وجل بصيغة الاستفهام متحدثاً عمّن عارضوه وقاوموا دعوة الله إلى عقيدة الوحدانية: "أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (10)" (سورة الروم).

والخلاصة التي نخرج بها من عرضنا لظاهرة السنن الثابتة التي يخضع الله لها كلّ خلقه هي أنّ السنن أو القوانين تستوعب كلّ الأنشطة المادية والإنسانية فلا يخرج عليها شيء في السماوات وفي الأرض. ولا يتعارض مع هذه الحقيقة أنّ معجزات خارقة للسنن والقوانين قد ظهرت على أيدي الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، أو على أيدي رجال ونساء اصطفّتهم العناية الإلهية، فهذه ظاهرة تؤكد القاعدة التي هي هيمنة السنن والقوانين كما تؤكد في الوقت نفسه هيمنة الخالق عز وجل على كلّ شيء... وعلى القوانين الناظمة للأشياء، وبالتالي تؤكد السنن والقوانين خلق من الخلق جعل الله منها نظاماً لخلقه. وكانت المعجزات إعلاناً عن مخلوقية القوانين كما هي مخلوقية غيرها من المخلوقات المادية والإنسانية وغيرها.

لكنّ التعامل مع الطبيعة والكون والتاريخ البشري من خلال السنن والقوانين الثابتة لم يتم بالسهولة التي يتخيلها بعض الناس. وليس أدلّ على ذلك من أنّ ناساً كثيرين حتى يومنا لا يزالون عاجزين عن الوعي بمعنى السنن والقوانين. إنّ التنجيم وقراءة المندل والسحر والعرافة التي تعبر عن ثقافة قوم يتعاملون مع الطبيعة والإنسان وغيرهما من المخلوقات بغير منطق السنن والقوانين مشهورة شائعة. وهي لا تشد قلوب العامة وحسب بل تشد أيضاً قلوب عدد غير قليل من أفراد الخاصة. ولا عجب في ذلك فهي إرث قديم توارثه الناس جيلاً بعد جيل. وإذا كنا نحن على علم بهذا كله فالله أعلم منا به. ولذلك حرض القرآن الكريم تمهيداً منه لتدعيم الفكر الواقعي عند عباده على تجريد كلّ الكائنات من حولها وطولها وعلى توكيد أنها كلّها خاضعة لأمر الله وأنّ السماوات والأرض وما بينهما قد سخرت كلها لخدمة الإنسان على نحو من الأنحاء.

وقد ظهر هذا الحرص على صورتين اثنتين:

الصورة الأولى هي في الإعلان عن كرامة الإنسان على الله ومنحه حرية الاختيار والفعل. وبالتالي تفضيله على كثير ممّن خلق الله من خلقه. وهي أيضاً في الإعلان عن استخلاف الله للإنسان في الأرض بحيث يبدو هذا الإنسان قبل أن يصنع مصيره ويحقق ذاته في طريق الخير أو في طريق الشر، كائناً متميزاً عن سواه. يقول الله عز

وجل في هذا المعنى في سورة الإسراء: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا(70)".

وأما الصورة الثانية فهي في توكيد حقيقة أنّ كثيراً مما خلق الله مسخر للإنسان: "ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" (الرعد:2). " وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33)" (سورة إبراهيم). "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ" (الحج:65).

هكذا تتعرى الكواكب والنجوم ولا سيما الشمس والقمر من كلّ القوى الخفية التي يتخيلها الناس ولا سيما في عصور سابقة... وهكذا لا يبقى من السماوات السبع ومن الأرض غير أنها أشياء لا أكثر ولا أقل.

إنّ هذا الحرص الإلهي على إعطاء السماوات والأرض حجمها الحقيقي وعلى تعيين الدور الذي تقوم به وتحديد الخدمات التي تؤديها، هو الإعلان عن تحول هائل جداً في التوازن الثقافي القديم وظهور توازن جديد لا يعود فيه الإنسان عرضة لأوهام المنجمين وتخيلات السحرة وتلفيق العرافين وأكاذيب الذين يكتبون للناس ضد الناس، بل يصبح فيه هذا الإنسان مخلوقاً متميزاً من ناحية ومهيمناً على هذه المخلوقات بما منحته العناية الإلهية من قدرات خاصة على التفكر والتدبر والسير في الأرض باحثاً منقباً يخرج الزرع من الأرض، ويصنع الحديد من ترابها، ويستخرج أنواع المعادن، ويستخدم الآلاف من الخامات، يصنعها، ويحرقها ويذيبها، ويعيد تشكيلها ويستخدمها لتيسير أسباب عيشه ملتزماً فيما يفعله بالقواعد والسنن والقوانين التي جعلت منها العناية الإلهية نظاماً ينظم المخلوقات كلها.

والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم لم يقف عند هذه المرحلة التي فتح بها الباب واسعاً أمام القدرات الإنسانية وأتاح له به فرصاً كثيرة للعمل باحثاً متدبراً ساعياً في أرض الله وفضائه، بل جاوز هذه المرحلة إلى مرحلة لاحقة حضه فيها على التنقيب سيرافي الأرض، وعلى تقليب وجهه فيما حوله ليتعرف إلى أسرار خلق الله.

يقول تبارك وتعالى: في هذا المعنى: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (العنكبوت:20).

ولا يرد علينا أنّ الغاية التعليمية من دعوة الإنسان إلى السير في الأرض هو إثبات قدرة الله على إعادة الخلق كما بدأه أول مرة. ذلك لأنّ المعرفة المستمدة من ملاحظة الوقائع وممارسة التجارب، واكتشاف القوانين التي تنتظم بها الأشياء وتخضع لها الحياة هي في الوقت الذي تساعد فيه الإنسان على استخراج النعم والثروات، داخلة في المفهوم الواسع للمعرفة التي تحدثنا عن جانبيها العقلي والذوقي من قبل، والتي قصد بها إلى توكيد العلاقة بين العبد وربه وتوثيق عقيدة الوحدانية في القلوب. إنّ هذا التوجيه المعرفي يعلن عن الوحدة الشاملة في الخلق. ويشير إليها متمثلة في القيم المادية والأدبية. فالوحدانية كما قلنا أكثر من مرة هي التي ترمز إلى قاعدة التصور الأساسي في الإسلام... وكلّ ما في الكون، وما يصدر عن الإنسان من الأنشطة مشدود إليها موصول بها في نهاية المطاف.

***

وكما أنّ القرآن الكريم قد شد أنظار العباد إلى أشياء الأرض وهو يحضهم على التعرف إلى أسرار بدء الخلق، فقد شد أنظارهم إلى ما يجري في الفضاء، في السماء الدنيا وفيما وراء السماء الدنيا.

وذكر لهم أنّ في وسعهم التعرف إلى أسرار الفضاء والأكوان السابحة فيه... ولا عجب في ذلك... أوليس أنّ الأكوان السابحة في هذا الفضاء مسخرة للإنسان وأنها خلق من الخلق؟ لكنه حذر العباد في الوقت نفسه من أنّ

الهيمنة على هذه الأكوان مشروطة بالحصول على سلطان معين هو سلطان المعرفة... ومن قبلها سلطان الإرادة النابعة من مفهوم العقيدة التي وطّأت جناح الموجودات كلها لهؤلاء العباد.

والجدير بالذكر أنّ هذا التحدي لم يوجه إلى الإنسان وحسب بل وجه أيضاً إلى عالم الجن. ولا شك أنّ في هذا التحدي ما يدلّ على امتياز المعرفة بأسرار الهيمنة على عالم الفضاء لكنه في الوقت نفسه لا ينفي قدرة البشر على الفوز بها واستيعابها والإفادة منها. قال عز من قائل: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ" (الرحمن:33).

المهم أنّ الوحي السماوي قد حرض العباد وحضهم على تقليب الوجه فيما حولهم، وعلى السير في كلّ اتجاه للتعرف إلى الأسرار الخاصة ببدء الخلق، وعلى الفوز، إن أمكنهم ذلك، بالسلطان الذي يمكنهم من النفاذ إلى الفضاء الخارجي.

***

لكنّ الدعوة إلى السياحة والبحث والتنقيب باتخاذ منهج واقعي ملتزم بالملاحظة والاستقراء والتجربة لم تقف عند أشياء المادة في الأرض أو في السماء. بل اتجهت أيضاً إلى الحض على التنقيب والبحث في مسيرة الزمن... أي أنّ المعرفة التي نسميها اليوم، معرفة علمية، ليس ميدانها هو المكان وحسب بل الزمان أيضاً... والتاريخ هو التعبير الأمثل عن مسيرة الزمن. فهو الذي يرسم الخط البياني للتقلبات في مصائر الشعوب... والتقلبات هذه لا تحدث تحت تأثير المصادفات بل لها أسبابها المادية والخلقية والفكرية.

فالتاريخ يعلمنا، كما يوحي القرآن بذلك، كيف ينهض أناس ويتقدمون، وكيف يتوقفون عن التقدم ويتخلفون عن الركب فلا يعودون شيئاً من أشياء الحضارة بل يعزلون عن مسيرتها...والقرآن حريص على ربط الانهيار بسبب أو أسبابه... كما هو حريص على ربط التقدّم بسببه أو أسبابه التي لا تخطىء أبداً.

هو الذي علم العباد كيف يرتبط الإنهيار بالفساد وتكذيب الحق وانتشار الإنحراف بين الناس... وهو أيضاً الذي علم العباد كيف يرتبط التقدّم بصلاح القلب وقوة الأخلاق والاستقامة والشجاعة المستنيرة بالعقيدة.

وهو نفسه الذي يدعوهم إلى تأمل وقائع الماضي المتمثل في مسيرات الأمم والشعوب السابقة بحيث يصبح التاريخ مصدر معرفة حقيقية شاملة بأسباب التقدم والتأخر.

إنه يقول لهم: "قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" (آل عمران:137).

وتتكرر هذه الدعوة بمناسبة الحديث عن الذين يستهزؤن بالدعوة إلى الله وتذكير محمد صلى الله عليه وسلم بأنّ ما يلاقيه من تكذيب القوم واستهزائهم به قد سبق أن واجهه رسل من قبله فحاق بالذين سخروا بهم وهزأوا من دعوتهم ما كانوا به يسخرون ويستهزؤن. ثم يقول لرسوله عليه السلام ولأنصاره ما معناه: سيروا في الأرض وتتبعوا أثار من سبقكم وتأملوا المصائر المأساوية التي صنعوها لأنفسهم حين كذبوا بالحق واختاروا الفساد على الصلاح. قال تبارك وتعالى في سورة الأنعام: "وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" (11).

وكان القرآن قد توجه قبل ذلك إلى المشركين أنفسهم، أعداء الحق وأنصار الباطل والفاسد وحذرهم من أن يغتروا بقوتهم وبما يملكونه من الثروات مؤكداً لهم أنّ هذا كله لا يغني عنهم من الله شيئاً ولا يجنّبهم موارد التهلكة. ذلك أنّ التقدم مشروط بصفات وخصائص معينة. يقول تبارك وتعالى في سورة الأنعام: "أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ(6)".

وفيما يلي نورد بعض الشواهد التي تؤكد هذا المعنى وتحرص على جعل التاريخ حقيقة بشرية خاضعة لسنن ثابتة وقوانين محددة يقول عز من قائل في سورة الأعراف: "وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (86)".

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (الروم:42)".

"وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" (النحل:36).

***

وتمضي الآيات القرآنية قدما تؤكد هذا المعنى وتكرر الإشارة إلى العلاقة الثابتة القائمة بين الفساد أو الجريمة أو الانحراف والكفر وبين المصائر المأساوية لكثير من الشعوب والقبائل.

ولا شك أنّ هذه الأمثال التي يضربها القرآن للناس ويسلط الأضواء على ما فيها من عناصر التقدم أو التخلف والهلاك هي بالإضافة إلى كونها شواهد تعلم من يقرأها كيف يستكشف سر المسيرات التاريخية ويتعرف بها إلى مصائر الشعوب، نقول: بالإضافة إلى هذه الظاهرة يطرح القرآن قاعدة أساسية في حركة التاريخ البشري. وخلاصتها:

إنّ التاريخ في جوهره هو حصيلة الرؤية الشاملة التي تبدأ بالتزام عقيدة صادقة وما يترتب على هذا الالتزام من صفات خلقية ونفسية تأتي في مقدمتها: صفتا الإرادة الواعية بأبعاد العقيدة، ثم الاستقامة.

والواقع أنّ التاريخ البشري في كلّ ما سجله من الوقائع الحاسمة قد أكد دور العقيدة وما يترتب عليها من صفات تتمثل فيها القوة والثبات والوضوح في الرؤية وغير ذلك.

ولم يحدث أنّ أمة دالت دولتها في الوقت الذي تحتفظ فيه بالعقيدة الصادقة والصفات النابعة منها. وإذا كان في القرآن ما يستقل به عن هذه القاعدة فهو إعلانه عن أنّ العقيدة المثلى هي عقيدة الوحدانية التي تصدر عنها كل مقومات التقدم وخصائص النهضة في ميدان الذوق والمعرفة المباشرة التي تتطهر النفس بها بفعل التقوى، وفي ميدان التفكير العقلي النظري الذي تتحدد أبعاده بمفهوم الوحدانية والصفات المتصلة بها، ثم في ميدان التفكير العلمي الذي ينشط بالتعامل مع أشياء الطبيعة والحياة والكون.

أما وقد تقررت هذه الظاهرة المعرفية وارتبطت بالتصور الأساسي للإسلام، فإنّ علينا أن نتساءل: ما هي أبعاد هذه الظاهرة المعرفية؟ وبعبارة أخرى: ما هو الدور الذي تقوم به؟

هل يمكن أن نبني تصوراتنا للكون والحياة والموت وما قبلهما وبعدهما وللزمان والمكان، ولكل ما يقع تحت حواسنا بصورة مباشرة أو غير مباشرة، انطلاقاً من النتائج والكشوف والقوانين والنظريات التي نسميها علمية والنابعة من ملاحظاتنا واستقراءاتنا وتجاربنا التي تقوم بها ونحن نتعامل مع الطبيعة والحياة والكون؟

وبتعبير آخر: هل يمكن أن ننشىء رؤية فلسفية شاملة نابعة من النتائج والكشوف والقوانين العلمية؟ لقد سجل تاريخ الفكر البشري أنّ حضارات معينة قد التزمَت كلّ منها منهجاً معيناً في المعرفة وجعلت منه وسيلتها الوحيدة لتكوين رؤية فلسفية...

فالحضارة اليونانية مثلاً قد اعتبرت المنهج العقلي النظري الذي تمثل في منطق أرسطو الصوري مصدراً وحيداً للمعرفة فوقعت في التناقض حين ناقشت قضايا الميتافيزيق ولا سيما قضية الخلق والعلة الأولى.

كما أثبت المؤرخون اتجاه الفلاسفة الطبيعيين قبل سقراط والسوفسطائين إلى تعميم الملاحظات التي سجلوها وهم يقلبون الفكر فيما حولهم من مظاهر الطبيعة فوقعوا في العجز وضاعوا في متاهات من الأفكار الغامضة.

أما الحضارة الغربية الحديثة فقد بدأت على لسان فرنسيس بيكون بالدعوة إلى حصر المعرفة بالوقائع التي يقع عليها الحس أو تخضع للتجربة والملاحظات المباشرة وغير المباشرة.

ولم يتردد الفلاسفة الذين جاءوا بعده في وضع تصوراتهم انطلاقاً من الوقائع التي اكتشفها المنهج العلمي الواقعي فكان منهم من أنكر كلّ ما يتصل بالميتافيزيق واعتبر الحقيقة المرعية الوحيدة تلك التي يحققها المختبر وما هو على صورته من مثل أوغست كومت صاحب الفلسفة الوضعية، وكان منهم من اعتبر الفكر هو الحقيقة الأولى ولكنه في الوقت نفسه جعله جزءاً من ثالوث الجدلية التي قرر بها أنّ التاريخ بخاصة هو في واقعه موضوع ونقيض موضوع ثم مركب موضوع، واعتبر الروح الأكبر هي الحقيقة العليا التي يتمثل فيها الفكر، ثم لم يلبث أن اعتبر الدولة تجسيداً لهذا الروح من مثل جورج فيلهيلم هيجل. وكان منهم عمانوئيل كانط الذي تبنى العقل مقياساً للحقيقة ووسيلة وحيدة للوصول إليها لكنه لم يلبث في النهاية أن أنكر قدرة العقل على استيعاب ما وراء الزمان والمكان واضطر تجنباً للحرج أمام سلطات الكنيسة أن يقيم الحقيقة الدينية فوق قاعدة الأخلاق.

ثم ذهب كثيرون غير من ذكرنا مذاهب شتى في وضع آرءاهم الفلسفية، ويئس بعضهم من الوصول إلى حقائق إيجابية فوقف عند الرأي الذي يجد القيمة الحقيقية في النتائج العملية للفكر العلمي والتأمل الفلسفي. من مثل اصحاب فلسفة المنفعة أو "البراغماتيزم".

وخلاصة القول في كلّ هذه الاتجاهات النابعة من اعتماد الفكر العلمي المتعارف عليه حديثاً منهجاً وحيداً للمعرفة أنها لم تحقق رؤية واضحة محددة يتفق عليها الجميع. إنّ التشويش والغموض والتناقض هي الصفات الأساسية التي تشيع كلّها أو بعضها في المذاهب الفلسفية الحديثة. ولا ننسى أنّ بعض الفلاسفة قد حصر النشاط الفلسفي في موضوع معين معبراً عن رفضه للتفكير الفلسفي الشامل. فلم يبق من الفلسفة غير أنها بحث في منهج المعرفة أو ما شابه ذلك.

ومن هنا حرص القرآن الكريم على تعيين حدود ثابتة للمعرفة العلمية التي تلتزم بالملاحظة والاستقراء والتجربة... لقد حصر المعرفة التي نسميها اليوم "معرفة علمية" بالسير في الأرض والبحث عن أسرار بدء الخلق، كما قدم نماذج معينة للحقائق العلمية من مثل إعلانه عن خضوع كل المخلوقات لسنن ثابتة وشيوع ظاهرة

النظام الدقيق في السماوات وفي الأرض. وتحدث عن السنن لا في حدود العلاقات المادية وحسب بل في حدود العلاقات البشرية.

وكما أنه عين حداً للنشاط العقلي النظري حين قرر عجز الإنسان عن تناول بعض الموضوعات بملكاته العقلية من مثل موضوع الروح، فقد وضع مثل هذا الحد لنشاط الفكر العلمي بحيث لا يجاوز ميدان التنقيب والكشف والتعرف إلى أسرار المخلوقات التي يتصل بها الحس عن طريق مباشر أو غير مباشر.

والغاية من هذا التحديد ليست إنكار الدور الايجابي للفكر العلمي بل هي ربط المعرفة العلمية بجملة المعارف الأخرى بحيث يتكون منهج معرفي عناصره الأساسية التي عرفناها حتى الآن هي:

1 – الذوق أو المعرفة المباشرة التي تتحقق بالتأمل والتطهر وتصفية النفس من علائق الدنيا وكدوراتها، وقد عبر عنها القرآن بكلمة واحدة هي "التقوى" مصداق ذلك في قوله تبارك وتعالى: "وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ".

2 – المعرفة العقلية النظرية التي تجد ميدانها الواسع في نظام الكون واستمراره، وفيما يكشف عنه من دلالات تشير إلى وحدة الخلق وبالتالي إلى وحدة الإرادة الخالقة. أما ما وراء ذلك من التفصيلات الخاصة بالروح وبالحقائق المغيبة عنا من مثل حقيقة الملائكة والجن فليست من شأن العقل النظري عند الإنسان.

3 – المعرفة العلمية الواقعية وهي التي أعد لها القرآن مقدّماتها الفكرية الأساسية حين أعلن خضوع الخلق كله لسنن ثابتة وقوانين مستمرة الفعل وحرّر الإنسان من الأوهام والأساطير المتصلة ببعض العوالم مثل العوالم الكونية ووضع حداً لمزاعم المنجمين والعرافيين والسحرة وغيرهم، كما قرر أنّ مهمة هذه المعرفة في الحقيقة والواقع هي الإفادة من نعم الله المنتشرة في الأرض وفي السماء... في باطن الأرض وفي أعماق البحار.

4 – ومن وراء هذه المعارف كلها أعلن بأنّ الميزان الذي توزن به هو الفطرة التي هي ليست فطرة المدركات العقلية كما يقول كانط بل هي فطرة الوعي الإنساني كله ومعارفه كلها أكانت معارف ذوقية أو معارف عقلية

نظرية أو معارف مادية. وجوهر هذه الفطرة هو البصيرة التي اعتبرها منارة وحيدة أساسية للمعرفة تعين الطريق أمام العارف كما تعين البوصلة الاتجاهات الأربعة فتحول دون ضياع السفن في البحر أو المسافرين في الصحراء.

خاتمة

انطلاقاً من عقيدة الوحدانية التي تتصف بالثبات والشمول والتوازن والإيجابية والواقعية والرعاية المستمرة، نستطيع أن نقرر، ونحن مطمئنون إلى صحة ما نقرره، بأنّ ما جاء في كتاب الله من الأوامر والنواهي، وما زودنا به من الأخبار، وعلمنا إياه من الحقائق، هو رؤية متكاملة جاءت من عند الله لتقول لنا:

إنّ الله عز وجل لم يخلقنا عبثاً... بل خلقنا إنساً وجنّاً لنعبده.

ولما كانت العبادة تعبيراً عن جملة النشاط الذي يقوم به الكائن العاقل الذي منح حرية الاختيار وأحيط علماً بطريق الخير والشر وبيّنت له أبعاد الصواب والخطأ، فقد مكّن الله هذا الكائن العاقل من أن يفكر ويعمل في ضوء منهج محدد، إن أدركه جيداً وعمل في ضوئه وتقيّد بقيوده وأنظمته ووقف عند الحدود التي وضعها له وسخر لها كلّ ما حباه به من فطرة الإيمان وملكات التفكير وإرادة الاختيار، حقق الفوز في الدنيا كما ضمن الفوز في الآخرة.

والغرض من تعريفنا لمفهوم العبادة التي يمارسها الإنسان المؤمن هو أن تكون أنشطة الإنسان كلها محكومة بمنهج الله في قرآنه. فهو يفكر بهذا المنهج... ويسلك في دنياه بهذا المنهج... ويسير في أرض الله بهذا المنهج... ويتعامل مع كلّ ما خلق الله وسخره لمنفعته بهذا المنهج... يثير الأرض ويعمرها بالمنهج نفسه... ويبني حضارته ويحقق سعادته ويستجيب لأطماحه ويعمل على تحقيق أحلامه... يضحك ويبكي... ينطلق ويسكن... ويعقد العلاقات بينه وبين الناس، أو يقطع هذه العلاقات في ضوء المنهج الإلهي... فإذا فعل ذلك فهو عابد لله... وبذلك لا تعود العبادة وقفاً على الصلوات المفروضة أو النوافل... ولا تقف عند صوم رمضان ومناسك الحج... بل تتصل هذه العبادة ببقية أنشطته في الدنيا... ذلك لأنّ لكلّ عبادة وظيفة اجتماعية بحيث تستوعب جملة العبادات جملة الوظائف التي يلزم بالقيام بها في حياته الدنيوية.

ويتصل بهذه الوظائف الاجتماعية نظام اقتصادي تعاوني متكافل... كما يتصل بها أدب خاص، وواجبات محددة، وخطة واضحة لكسب المعارف والعلوم لا سيما وأنّ هذا الكسب المعرفي العلمي ميزة يتميز بها ابن آدم وهو الذي استحق أبوه الأول سجود الملائكة له بفضل ما تحقق له من هذه الميزة.

****

ولما كان نجاح هذه المهمة الموكولة إلى الإنسان أمانة ثقيلة قبل أن يحملها، فإنّ من الطبيعي جداً أن توفر له العناية الإلهية الأسباب التي تمكّنه من حمل هذه الأمانة على الصورة التي يتحقق بها فوزه.

ومن الأسباب التي تمكّنه من حمل الأمانة الثقيلة أن يحيط علماً بمنهج المعرفة الذي يزن به تصرفاته... ويستعين به في التعامل مع نفسه ومع الناس من حوله ومع الخلق كله فلا تلتوي به الطريق... ولا يغمض عليه ما رزق القدرة على تبيّنه من الحق.

والمنهج الذي وضع بين يدي الإنسان وبسط أمامه كاملاً غير منقوص لا يمكن أن يحكم قلبه ونفسه وعقله وجوارح جسده وكل صغيرة وكبيرة من أشياء حياته ما لم يستوعب جوانبه كلها ويلتزم لكل شروطه، وفيما يلي نضع تلخيصاً وافياً لهذه الشروط والجوانب.

1) المعرفة جزء من العبادة الشاملة كما شرحناها قبل قليل.

2) ولما كان الإيمان بالله عز وجل رأس هذه العبادة وجوهرها فالمعرفة تبدأ من هذا الإيمان.

3) وتبدو أهمية العلاقة الوثيقة بين المعرفة والإيمان في أنّ الإيمان بالله الواحد الأحد شيء من صميم الفطرة التي فطر الإنسان عليها. ولما كانت الفطرة من الاتساع والشمول بحيث تقوم بمهمة الرقابة والتحكم وتمثل النظام الكبير الذي يستوعب الخلق كله، فإنّ من الطبيعي أن يتقيد الإنسان، وهو بعض هذا الخلق، بموجبات هذه الفطرة.

4) ولما كانت الفطرة صورة للتوازن الدقيق القائم على كل مستويات الخلق فقد وجب أن تكون المعرفة الإنسانية على هذه الصورة المتوازنة فلا تستقل ملكة من ملكاتها بالنشاط الإنساني كله. فإذا حدث ذلك كان الالتواء والتحريف والغموض والتناقض ثم الضياع والضلالة.

5) ولما كانت الوحدة في الخلق هي جوهر الخلق كله فقد جاء الوحي السماوي المتمثل في كتاب الله تحقيقاً لهذا التوازن وتثبيتاً له وبالتالي تحقيقاً لدور الفطرة وتثبيتاً لها.

6) وإذاً فإنّ كتاب الله هو المصدر الذي تستضيء به المعرفة الإنسانية باستلهام أوامره ونواهيه.

7) أما منهج المعرفة الذي جاء متوازناً متكاملاً في كتاب الله فقد نظم النشاط العلمي عند الإنسان وعين حجم كلّ ملكة من ملكاته على الصورة التالية:

أ – المعرفة والخلق المستقيم متلازمان. ذلك أنها في حاجة إلى حرارة الصدق ووضوح الاستقامة وعمق اليقين وجودة الأداء.

ب – المعرفة والنشاط العقلي النظري متلازمان. ذلك لأنّ الإنسان يفقد الكثير من المعارف حين يتبلد عقله. فإذا نشط هذا العقل فقد وجب أن يعمل في الميدان المنتج بحيث لا يبذل جهده فيما لا طاقة له على استيعابه والإحاطة به والقرآن يحدد له ميدان نشاطه كما بيّنّا في فصل سابق.

ج – المعرفة والتعامل مع الواقع الذي يقع عليه الحس متلازمان. ذلك لأنّ الواقع الذي يحيط بالإنسان من كل جانب متمثلاً في الأرض والسماوات لم يخلق عبثاً. بل هو مادة المعرفة الحسية وغرضها. بل هو مصدر كلّ النعم التي سخرت لخدمة الإنسان.فإذا نشط في هذا الميدان فقد وجب أن يتقيد بالحدود التي وضعت له فلا يجعل من حصوله على المعارف المادية مصدراً لآراء ونظريات يجاوز بها حدود ما تغيبه وتحقق له من المنافع. إنّ وضع النظريات والمذاهب الفكرية الشاملة انطلاقاً من مكاسب العلم بالطبيعة والكون ومظاهر الحياة المادية هو التواء

عن الغاية التي تعيّنت لهذه المعرفة. والقرآن الكريم هو الذي حدّد أبعاد هذه المعرفة بالذات حين اقتصر على الأمر بالسير في الأرض والتعرف إلى القوانين والسنن التي تنظم أشياء هذه المعرفة.

د – المعرفة والتأمل الذاتي القاصد إلى تطهير القلب وتصفيته أيضاً متلازمان. ذلك لأنّ الإنسان يغيب عمّا في أعماق نفسه من الحقائق حين ينصرف عن هذه النفس ويسقطها من حسابه. ففي النفس من أسرار الخلق ما لا يقلّ أهمية في تعميق الصلة بين الإنسان وربه عما في الكون الخارجي الواسع.

هـ - المعرفة أخيراً في حاجة إلى البصيرة الواعية التي تعمل وتؤثر من وراء الملكات المذكورة من قبل... توضح وتفسر وتقوم وتحافظ على التوازن بين أدوار هذه الملكات المختلفة... فإذا تحقق هذا التوازن، بقيت العلاقة بين طاقات الإنسان المختلفة وبين الفطرة، إيجابية ومستقرة، على أن يضاف إلى المعرفة مصدر أخير لا غنى للإنسان عنه.

و – المعرفة والإيمان بالغيب متلازمان – ذلك الغيب هو الذي يملأ الثغرات ويكمل النواقص في دائرة المعرفة الإنسانية. إنه يغذيها بالحقائق والوقائع والأخبار التي يستحيل الحصول عليها ما لم تتوفر من مصدرها الإلهي. فإذا لم يتحقّق الإيمان بالغيب بقي الإنسان فريسة للحيرة والضياع وقد يصبح فريسة للإحساس الجارف المدمر بالخيبة والإحباط مما يهدد بتدمير البنية المعرفية التي كسبها الإنسان بعقله وقلبه ونفسه وحواسه وأخيراً ببصيرته أيضاً.

****

والجدير بالذكر أنّ أخطر ما تعاني بشرية العصر منه هو فقدان جلة المفكرين فيها للإيمان بالغيب الذي يملأ الفراغات المعرفية وبالتالي يحول دون إقدام الفكر الإنساني، في كلّ مظاهره، على القيام بمغامرات عقلية أو نفسية أو علمية مادية بحثاً عما يملأ به هذه الفراغات...

هذا هو التفسير الوحيد لمظاهر التناقض وأسباب الحيرة البائسة، والاضطراب الجالب للغموض، في المذاهب الفكرية التي تزيغ بها قلوب الملايين، وتلتوي بها نفسوسهم، وتقف معها عقولهم أمام تساؤلات تعجز عن الإجابة عنها فتصرّ على تصوّر أي شيء، أو تتخيل أي جواب لكلّ تساؤل تحت وطأة الرغبة في الإحاطة بكلّ ما يحتاج إليه أصحابها من العلم. وبدلاً من أن يستوعبوا هذا العلم من مصدره الحقيقي يتقمّشون الأفكار والحلول والإجابات من هنا وهناك حتى ولو اتصفوا بالرؤية فهي رؤية العاجز، ورؤية من يصر على تخيل ما لا سبيل إلى رؤيته.

فلا كمال للمعرفة الإنسانية إلا باستلهام ما جاءها من الغيب... ولا طمأنينة في صدور العارفين إلا بمادة هذا الغيب وتعليمه. وقد ألحّ القرآن الكريم على تبيين أهمية هذا المصدر فأشار إليه في أكثر من مناسبة واحدة. قال تبارك وتعالى يمنّ على عيسى بن مريم عليه السلام بما علّمه إياه: "إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ" (المائدة:110).

ومن هذا العلم الذي يتعذّر الحصول عليه من غير مصدره المغيب قوله عز وجل على لسان يوسف عليه السلام: "رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)"

وأخيراً يمنّ الله على محمد صلى الله عليه وسلم في أنه قد علّمه ما لم يكن يعلم حين يقول: "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (النساء:113)".

****

وبعد، فهذا ما فتح الله به عليّ وهداني إليه من علوم القرآن الكريم وهديه. فإن كنت قد أحسنت البلاغ فبتوفيق من الله عز وجل. وإن كنت قد قصّرت فقد قمت بما وسعني القيام به، والله عز وجل لا يكلف نفساً إلا وسعها... وهذا هو وسعي... فالحمد لله على ما هدانا إليه ونسأله تعالى مزيداً من الهداية فهو حسبنا ونعم الوكيل.

رمضان لاوند